٨ قروش

كتابي



حياة سارّه برنار

وكتب أخرى

حلمي مراد

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر اول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب التاسع عشر (السنة الثانية) : سبتمبر ١٩٥٣

الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل

المكاتبات : ١٨ شارع العباسيين ـ مصر الجديدة

تليفون ٦٥٦٠٨

عزيزي القارئ ..

لعلك تعرف عنى ولعى بأدب الكاتب النمسوى الاشهر «ستيفان زفايج» ، الذى سبق ان لخصت لك ، فى مناسبات عدة ، عدداً من قصصه الممتازة التى كان أروعها فيما اعتقد قصة «أموك» ، أو غرام تحت سماء الشرق ، كما نقلت من رواياته الطويلة - قبل أن أصدر «كتابى» - درته الخالدة «حذار من الشفقة» أو «قلوب تحترق» ، التى نشرتها فى عدد سبتمبر ١٩٥١ من «روايات الهلال» ، وقت ان كنت أشترك فى تحريرها ..

واليوم أقدم لك فى هذا العدد من (كتابى) درة أخرى من درر زفايج هى قصته الانسانية الرائعة «رسالة من مجهولة» ، التى أعتبرها من أقوى ما كتب البشر فى جميع العصور !.. واعتقد أنك بعد قراءتها سوف تشاركنى هذا الرأى

فاذا فرغت من هذه فتعال معى نواصل سياحتنا الذهنية بين دفتى هذا العدد ، فنرى أعظم ممثلة مسرحية عرفها العالم - سارة برنار - فى قمة مجدها وأعظم أدوارها .. ثم ننتقل الى انجلترا مع الروائية المعاصرة «فيليس بوتوم» لننصت الى ما ترويه لنا من «اعترافات سارة برنار» كما استوحتها من دراستها لحياة الممثلة العظمى ، وصاغتها فى قالب من خيالها ..

ثم تعال معى الى روسيا الحديثة ، حيث تجرى وقائع مسرحية «الام» ، التى كتبها اديب روسيا الفحل «مكسيم جوركى» ، بقلمه البارع وقلبه الكبير الذى وعى وعبر عن آلام شعبه وآماله ، كما لم يعها غيره من الكتاب أو يعبر عنهـا ..

ومن هناك نعرج على بلاد أخرى ، ومؤلفين آخرين ، حتى نصل الى بلاد العمالقة والاقزام ، التى وصفها «سويفت» فى كتابه الكلاسيكى الخالد «رحلات جوليفر» ، الذى ملأه بالسخرية اللاذعة من قومه الانجليز ، وهى سخرية يعجز احيانا عن فهمها الكبار ، وان زعم مؤلفها أنه كتبها للصغار والاطفـال !

والله ولى التوفيق ..

حلمى مراد

كتابى

اعداد نفدت

كتابى الاول :	« خطايا الحب »	وكتب اخرى	مارس ١٩٥٢
كتابى الثانى :	« قلب عذراء »	« «	ابريل «
كتابى الثالث :	« الهاربة من الجنة »	« «	مايو «

أعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى الرابع **«حواء الجديدة»** ، والخامس **«أحدب نوتردام»** ، والسادس **«جريمة حب»** ، والسابع **«عشيقة نابليون»** ، والثامن **«مذكرات كيوبيد»** ، والتاسع **«صنم تحطم»** ، والعاشر **«حديقة الله»** ، والحادى عشر **«عندما تحقد المرأة»** ، والثانى عشر **«لعبة الحب والموت»** ، والثالث عشر **«توبة خاطئة»** ، والرابع عشر **«ايها الربيع ترفق»** ، والخامس عشر **«الشيطان على الارض»** ، والسادس عشر **«ليدى هاملتون»** ، والسابع عشر **«الارملة المرحة»** ، والثامن عشر **«حياة جورج صاند»** ..

◆ وتطلب من صاحب كتابى (١٨ شارع العباسيين مصر الجديدة) ، وثمن كل عدد ١٠ قروش خالص اجر البريد (المسجل) ، ماعدا الاعداد الثلاثة الاولى التى نفدت ، والعدد السادس (وثمنه عشرون قرشا ، تحديدا للطلبات، نظرا لقرب نفاذه وعدم امكان اعادة طبعه) .. وما عدا العددين ١٣ ، و١٦ (الممتازين) ، وثمن كل منهما بالبريد المسجل ١٢ قرشا

◆ ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد **MONEY ORDER** ، ولا تقبل العملة الاجنبية أو أذونات البريد الخارجية .

الاشـــــتراكات

◆ وتشمل ضمنا الاعداد الممتازة ايضا — وترسل جميع الاعداد الى المشتركين : فى مصر والسودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة

◆ قيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٠٠ قرش ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٥٥ قرشا — فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والاردن .. الخ) ترسل القيمة بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد فى كل بلد **MONEY ORDER** وتحتسب القيمة بما يوازى ١١٠ قروش (عن سنة) و٦٠ قرشا (عن نصف سنة) — أو تدفع قيمة الاشتراك الى مكاتب شركة فرج الله للمطبوعات فى بيروت أو للمكتبة العصرية بسوق السراى ببغداد

خبز الهوان

قصة مصرية

للمحرر



لماذا اختار لى القدر هذا الدور البغيض : دور « الجلاد » لثلاثة قلوب كانت كلها فى قمة الهناء ، أبهج ما تكون اقبالا على الدنيا •• وشغفا بالحياة ؟

*

مساء الاحد ١٥ مارس الماضى ، بعد عودتى من الاوبرا – حيث رأيتها فى مقصورة قريبة – وجدتنى أكتب اليها هذا الخطاب :

« **مديحة !**

« أحسب انك حين فضضت هذا الخطاب ، ووثب بصرك الى ذيله ، لقراءة التوقيع ، قد تولتك دهشة وحيرة•• ووقفت عند اسمى لحظة تتساءلين : لماذا أكتب اليك ، أنا الذى لم تكن لك بى – فى يوم من الايام – أكثر من معرفة سطحية عن طريق صديق مشترك •• ؟

« •• فكم بالاحرى يكون تساؤلك لو علمت اننى بدورى لم أتوقع شيئا كهذا ، وانه لو كان أحد قد تنبأ لى ، منذ ساعات فقط ، بأننى سأقضى جانبا من الليل ساهرا فى غرفتى جالسا هكذا وراء مكتب صغير ، كى ألقاك عبر هذه السطور •• لكنت رميته بالخبل ، فان فكرة الكتابة لك كانت أبعد الافكار عن خاطرى •• الى أن رأيتك الليلة فى الاوبرا – فى موقف تعلمين وأعلم كم هو أليم ! – فاذا بانتباهى ينشغل عن متابعة الرواية التى أمامى ، بالتفكير فى رواية أخرى كنت أنت بطلتها ، وكنت أنا – وهذا ما لا تعلمين – المحرك لبقية أبطالها من وراء الستار •• !

«**الستار الذى آن له أن يرتفع، كي أكشف لك عن الدور الذى لعبته في حياتك ، والذى عنيت بابقائه طي الكتمان حتي الآن،**

طوال عامين ، ربما لانى وجدت لذة خاصة ـ قد تكون شريرة ـ فى أن يظل لغز ما أصابك قائما فى ذهنك بغير حل ٠٠ فتطول حيرتك وجهلك ، ويضنيك البحث عن تفسير لما حدث !

«وماكنت لاغير موقفى وأطلعك على الحقيقة ، لولا أن ما شهدته الليلة قد أثار فى نفسى كامن عطفها ورثائها ، حتى لقد رأيت أخيرا أن أكون كريما معك ، أنت التى لم تكونى كريمة مع أحد ، ولا حتى مع نفسك ٠٠!

« ولكن ٠٠ ما هكذا تكون البداية !

*

◆ « **منذ** عامين ، وكان ذلك فى أوائل ديسمبر على ما أذكر ، وصلت الى بلدة فى الصعيد كى أحضر فى احدى القضايا على أن أعود بقطار المساء ٠ وانفضت الجلسة مبكرا فخرجت مع زميل قديم نذرع شوارع البلدة ، مستمتعين بشمس الضحى ، ونتذاكر أيام الدراسة الحلوة ٠٠ حتى حان وقت الغداء فألح على صديقى أن أمضى معه لتناوله فى منزله ٠٠ ثم جلسنا فى الشرفة نهضم الطعام بالسمر : تحدثنا فى المهنة ، والسياسة ، والطقس ٠٠ وكل شىء ، الا المرأة والحب ! ٠٠ فان مناسبة ما لم تنعطف بنا الى هذا الموضوع ٠٠ حتى انصرفنا ، هو الى مكتبه وأنا الى النادى القريب ، لاقضى الساعات الباقية على موعد السفر ٠٠

«وكان يمكن أن ينتهى الامر عند هذا ، فكانت هذه التفصيلات تضيع فى غمار التوافه العادية التى تتكرر كل يوم ٠٠ لولا أن القدر الموكل بتسييرنا كالدمى ، بواسطة خيوط فى يده ، كان فيما يبدو يؤلف وقتئذ احدى مسرحياته ٠٠ ويبحث عن أبطال لها !

« ولابد أنه رآنى لحظتها ، فخطر له أنى قد أصلح للدور المطلوب ، وراقه أن يسنده الى ، فدبر أن أنشغل فى مكتبة



خصصت البعيد بحبك الطاهر ..

النادى بكتاب شائق أنسانى نفسى ·· حتى فاتنى القطار !

« ·· وصار حتما على أن أبقى فى البلدة يوما آخر ، فقبلت دعوة صديقى للمبيت عنده· وانى لاتبين الآن أن أفدح النتائج رهينة فى الغالب بأتفه الاسباب والمصادفات ! ·· فقد كانت الامسية الطويلة كافية لان نطرق الموضوع الوحيد الذى لم يجىء دوره بعد الظهر ، وهو موضوع : المرأة ·· والحب !

« ما الذى ساقنا اليه فى المساء؟ ·· لا أذكر ·· ربما كنت قد استشعرت الوحشة فى معيشة صديقى وحيدا أعزب فى ذلك البلد النائى ، فسألته : ألا يفكر فى الزواج ؟

« وانطلق يحدثنى جذلا عن فتاته : خمسة أعوام مضت وهما يتساقيان كؤوس الهوى مترعة ، منذ عرفها وهو بعد طالبا ، الى أن نال الليسانس واشتغل محاميا ، ثم سافر ليمارس المهنة فى بلدته تلك بالصعيد ··

« ·· وكم بكت الفتاة وهى تودعه !·· وكم تبكى وهى تودعه بعد كل اجازة يقضيها فى مصر ! ·· وما أحد العاطفة التى تفيض من خطاباتها له ، التى تعد بالعشرات ··

« ·· كان يتكلم فخورا بمن ولاها على قلبه، وأعدتها أحلامه لعرش ثان : عرش بيته ، الذى سينصبها عليه قريبا ، عندما تسمح الظروف ··

« ·· وكأنما أعياه وصفها ، أو خيل اليه انه مهما وصف فلن



يوفيها حقها ، فقام الى الدولاب وأخــرج منه ... لا صــورة واحدة ، وانما « ألبــوما » من الصور ..

« ولم تكن الفتاة الا أنت !

« أنت التى كنت – طوال الاعوام الثلاثة أو الاربعة الاخيرة – أراك فى مصر دائما مع ابن عمى فؤاد ، وأعلم مدى علاقتــه بك !

« وهكذا بدت الخديعة سافرة أمام عينى .. لقــد كنت وخصصت القريب بحبك الفاجر ! كالقطط الشريرة ، تعملين « بروحين » .. واعتنقت شريعة سمحاء : الشرك فى الحب .. فاستبحت لنفسك – فى وقت معا – عواطف رجلين ، خصصت البعيد منهما بحبك الطاهر ، وخصصت القريب بحبك الفاجر .. وأفلحت فى أن تضرمى جذوة العاطفة فى كيانهما بوقود واحد : رضاب شفتيك ! .. أبيته على الاول فألهبه الحرمان ، وأبحته للثانى فألهبه الادمان !

« وهكذا بقى الاثنان فى الاسر !

« بقيا طويلا ، وكل منهما يحسب أنه أسيرك الاوحد ، وأن ابتسامتك وعبوسك ، وغضبك ورضاك ، وقف عليه .. فيغبط نفسه على أنه انفرد بهذا « الشرف » من دون الناس !

« ياللسخرية ! كيف طاوعتك نفسك ففعلت بهما هذا ؟ .. لو أنك ذقت ، ولو مرة فى حياتك ، طعم الالم النفسانى المرير .. أو لو حتى شاهدته على قسمات وجهيهما وأنا أسقى كلا منهما الحقيقة المرة ، على جرعات – خوف أن تقتله الصدمة ! – لكنت قد ترفقت بهما ، ولاخترت لضحيتيك غير هذا العقاب !

« لقد شهدت منذ أيام تنفيذ حكم الجلد على تاجر جشع ، وأقسم أن وقع السياط على جسده كان أخف من وقع الحقيقة فى نفسى «حشمت» و «فؤاد» ، وان اختلفت عندهما قوة الاحتمال : فلقد خذلت الاول أعصابه حتى كادت الدموع أن تطفر من عينيه ، لولا أنه استنجد برجولته ! **ورغم ذلك فانى أفقت من النعاس فى تلك الليلة ، قبيل الفجر ، على صوته ينشج بالبكاء فى نومه ، وهو متشبث بكتفى كالاطفال !**

« أما ابن عمى – فؤاد – فقد كان أكثر تجلدا ، أمامى على الاقل ، فأخفى أساه فى ضحكة تمثيلية ، وهو يزعم أنه لم يكن جادا فى علاقته معك ، وما فكر قط فى الزواج !

« وحين حضر حشمت الى مصر بعد أسبوعين ، عرفته بغريمه ! ولست فى حاجة الى أن أصف لك لون الابتسامة الواهنة التى ارتسمت على زاوية فم كل منهما ، وهو يصافح الآخر !

« .. كما انى لست فى حاجة الى الاطالة ، فانك تعرفين بقية القصة أكثر منى ، وتذكرين أنه لم تمض شهور بعد أن قطع التعسان كل صلة لهما بك – فى وقت واحد وبلا ايضاح ! – حتى نشرت الصحف نبأ .. زواجك !

« .. فقد كان فى جعبتك دائما « احتياطى» من الرجال ! وفى هذه المرة كان الصيد دسما ، فان «شكرى بك» كان من رجال المجتمع والمال .. !

*

◆ « **لكن** عدالة السماء لم تشرع عبثا يامديحة .. وكم يفتن القدر فى نسج خيوط العقاب أو الثواب ! لا تحسبى أنى شامت، وانما هو الرثاء الذى فاض من قلبى ، برغمى ، حين رأيتك الليلة فى مقصورتك بالاوبرا منزوية كالمنبوذة ، وزوجك منشغل

عنك ـ أمام الملأ وأمام عينيك ـ بصديقته (نعمات) التى أصبحت علاقته بها حديث الناس ، والتى لم يجد غضاضة فى أن يجلسها معك ٠٠!

« لكم كان الموقف أليما ! ٠٠ لا تمارى يا مديحة ، فانك امرأة، تهون عليك دنياك وآخرتك ، ولا يهون كبرياء أنوثتك ! ٠٠ وتفرطين فى كل شىء، لكى تنفردى بقلب الرجل الذى تحبين٠٠

« لكن هيهات ٠٠ فان شريعتك السمحاء قد عمت ، وكنت من ضحاياها ، اذ اعتنقها زوجك٠٠الذى سرعان ما سئمك ، فاذا هو من المشركين فى الحب ٠٠ واذا به يكيل لك بنفس الكيل الذى به كنت تكيلين !٠٠ وبعد أن كنت الحاكمة المطلقة على قلبين ، صرت الرعية المظلومة من حاكمها ، يسومها الخسف والهوان! ٠٠ وأى هوان وأى اذلال أشد وطأة من أن يجمع زوج بين حليلته وخليلته فى مكان ؟

*

◆ « **أعلم** أنى بهذا ألمس من نفسك عصبا حساسا ٠٠ ولكن شفيعى انك قد أتلفت نفسين ٠٠ انهما الآن صديقان ، جمع بينهما حبك ، ثم خديعتك ، ويجمع بينهما الآن الاشتراك فى بغضك ! وكم كنت أود أن أقول أيضا انهما سعيدان ، وأن جراح قلبيهما قد اندملت فنسياك ٠٠ لولا اننى لا أريد أن أكذب ، فان البغض فى ذاته دليل قائم على أنهما ما يزالان يذكران !

« وها أنت ترين أن لعنتهما قد حلت بك ، وان العقاب جاء وشيكا ٠٠ فان القدر قد أصدر حكمه عليك ، بالادانة ، وسطر حيثياته بخطوط بارزة ترينها ـ لو نظرت الى المرآة ـ واضحة على جبينك ، كما رأيتها أنا الليلة حين انتهى التمثيل وأضيئت الانوار !

« مديحة ..

« أراك تقرأين هذه السطور والدموع فى عينيك .. فدعيها تنهمر. اسفحيها غزيرة ماطاوعتك مآقيك ، لعلها تطهر قلبك من أدران الماضى ، وتغسل أشجانك .. فتجدين بعض العزاء !

« ولا تنسى أن تستمطرى الرحمة من السماء ، عساها أن ترفع عنك المذلة ، وتعفيك من خبز الهوان .. فانها رفيقة ، ولن تضن بالغفران !

غـــيرة !

◆ **فى** ايام مجد الممثلة الفرنسية «راشيل» ، خرجت الفنانة من احدى حفلات العرض الاولى تلهج بنجاحها مزهوة : « يا آلهى ، لم اكد اظهر على خشبة المسرح حتى فغر الحاضرون جميعا افواههم .. !»

فقاطعتها ممثلة ناشئة من حاسداتـها : «أوه ، هراء .. محال ان يتثاءب الحاضرون جميعا فى وقت واحد ! »

رأى الاغلبية !

◆ **على** اثر انتهاء حفلة العرض الاولى لمسرحية برنارد شو المشهورة «السلاح والانسان» ، صفق الحاضرون مطالبين المؤلف بالوقوف ليحيوه .. فلما انحنى لهم بين ضجيج الترحيب الشديد ، شذ من بين النظارة متفرج صاح به من اعلى التياترو : «كفى كفى يا مستر شو ، انت تعلم ان هذه «المهزلة» هراء سخيف !»

فما كان من برنارد شو الا ان التفت الى موبخه قائلا فى تبسط : «انا متفق معك فى ذلك تماما يا صديقى .. ولكن ماذا يهـم رأيى او رأيـك ازاء آراء هـؤلاء المعجبين ..؟! »

هكذا يمجدون ابطالهم !

◆ **سأل** المعلم صبيا امريكيا فى احد فصول مدارس الاحد الدينية : « من كان الرجل الاول ؟ » .. فاجابه الصبى معتزا : «جورج وشنطون» ـ الرئيس الاول لجمهورية الولايات المتحدة ، ومحررها من الاستعمار البريطانى ـ وهنا اعترضه المعلم مصححا : « بل ان الرجل الاول كان (آدم) ! »

فانبرى له الصبى على الفور : «آه ، اذا كنت تقصد الرجل الاول من «الاجانب» فلعله كان (آدم) ! »

سخرية تنقلب ضد قائليها !

◆ **بعد** زمن وجيز من انتهاء ثورة التحرير الامريكية التى ادت الى استقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا ، كان شاب امريكى يقضى سهرته فى احد مسارح انجلترا ، ففوجىء بان الرواية التى تمثل على المسرح تنطوى على السخرية والتعريض بمواطنيه .. وكان احد مشاهدها يمثل نفرا من الجنود الامريكيين ممزقى الثياب ، حفاة الاقدام ، وقد وقف رئيسهم يسأل كلا منهم عن الحرفة التى كان يزاولها قبل تجنيده .. فاجاب احدهم بانه كان حائكا للثياب ، وقال آخر انه كان اسكافا !

وكانت الفكرة المقصودة من المشهد اثارة استهزاء النظارة بحائك الثياب ، الممزق الثياب ، والاسكاف الحافى القدمين !.. ولكن قبل ان يبلغ التمثيل الموقف الذى يسخر من هذا الوضع انبرى المتفرج الامريكى صائحا من مقعده باعلى صوته : «هؤلاء الخياطون والاسكافون هزموا بريطانيا العظمى .. مرحى مرحى !» .. وكانت القفشة فى موضعها ، بحيث لم يملك الحاضرون انفسهم من الضحك اعجابا بها .. وكان فى مقدمة الذين ابتسموا ، برغمهم ، رئيس وزراء انجلترا ، وكان حاضرا !

الخالدات



شهيرات النساء

عزيزى القارىء ..

فى أعداد سابقة قدمت لـك فى هذا الباب ثلاثا من قصص حياة شهيرات النساء ، هى :

- فلورنس نايتنجيل
- مدام كورى
- كليوباترة

واليوم أقدم لك فيما يلى قصة حياة أعظم ممثلة مسرحية عرفها العالم ـ سارة برنار ـ وهى التى بلغت من ذرى المجد ما كان أقـرب الى الخرافات والاساطير .. وترامى على أعتابها ملوك وأباطرة ، واثرياء وعظـماء ، ودوقات ومهراجات ، يلتمسون منها لقاء ، أو ابتسامة ، أو حتى نظرة عابرة ! بل انها حين زارت أمريكا استقبلت بمظاهرات لم يظفر بها أعظم الابـطال والفاتحين .. الخ

وفى اعداد قادمة أزمع أن أقدم لك باذن الله قصص حياة أخـريات من نساء العالم الشهيرات ، فى هذا الميدان أو ذاك ، ومنهن : جان دارك ، تيودورا ، كاترين ، مارى ملكة اسـكتلنده ، شارلوت برونتى ، مـدام شيانج كاى شيك ، مسز روزفلت .. الخ



حياة
سارّه برنار
أعظم ممثلة مسرحية عرفها العالم !

الرسم مقتبس عن لوحة للرسام الفرنسي « لوباج »

ثمرة حب محرم !

◆ **كانت** حياة « سارة برنار » أعظم دراما مثلتها !٠٠ وماكان للاقدار ، التى جلست فى مقاعد المتفرجين فى الليلة الافتتاحية لحياتها ، أن تجد رواية ذات بداية أروع وأدعى الى اعجابها من تلك الرواية !

كانت أمها « جولى » صانعة قبعات تقضى لياليها فى الغناء للجنود السكارى المعدمين فى أحد مقاهى باريس ، بعد أن حرمت من أبيها وهى فى سن مبكرة فوجدت نفسها فى الطريق ، كمية مهملة محكوما عليها بأن تلتمس عيشها بالحيلة آنا وبالجرأة أحيانا !٠٠ **ورغم ظروفها السيئة كان لها شعر ذهبى رائع متموج ، كأنما صففته أيدى الملائكة ، وعينان يبدو أن روحا علوية قد أطلت فيهما قبل أن تولد وتركت طابع نظرتها فى أعماق حدقتيهما !**

وفى الحى اللاتينى كثيرا ما تعقد صفقات حب محرم ، غريبة فى بابها ٠٠ لكن قليلا منها يضم العناصر التى تورث ثمراتها النبوغ الفذ النادر المثال !

وحين التقت « جولى » ذات مساء فى الحانة بطالب حقوق مغامر جاء من الاقاليم ، لم يجل بخاطرها أكثر من أنها ستحظى فى رفقته بساعات لهو قصيرة ـ شأن كل طالب وخليلته ـ ثم يمضى كلاهما فى طريقه ٠٠ وهكذا عاشت جولى وصاحبها معا زمنا ثم افترقا، فذهب هو الى الاقاليم التى جاء منها، كى يمارس فيها المحاماة ، ومضت هى الى أحياء باريس الراقية لتمارس فيها الحب !٠٠ لكن البوهيميين العابثين تركا وراءهما أثرا عبقريا يخلد صلتهما على مر الاجيال ، فى أربعة أركان المعمورة ٠٠ ففى اكتوبر سنة ١٨٤٤ ولدت لجولى طفلة سمتها : سارة !

جوهرة .. فى الوحل !

◆ **وتدرجت** « جولى فون هارد » من متجر القبعات المتواضع الى صالونات أعظم أصحاب الالقاب فى فرنسا ، فازدان جيدها بحلية ثمينة مقابل كل دمعة حب زائفة ذرفتها ! لكن رأسها الجميل ظل خلى البال من شتى مشاغل الامومة وواجباتها ، فقد عهدت بطفلتها الى مربية فى احدى مزارع اقليم « بريتانى » ونسيت كل شىء عنها .. وبعد حين تزوجت المربية من بواب عمارة من عمارات العمال فى أحد أحياء باريس الوضيعة فأخذت الطفلة لتعيش معها فى مستقرها الجديد ، فى غرفة واحدة حقيرة مظلمة كريهة الرائحة .. وصارت تضعها مع جوارب زوجها وثيابه الداخلية القذرة فى وعاء واحد ثم تغسل الجميع معا !

وحين شبت « سارة » عن الطوق عهد اليها بمسح بلاط البناء كله مقابل أجر تعليمها . وصارت الصبية تلعب فى أزقة الحى القذرة ، وتتعلم من الالفاظ السوقية الشائعة فيه لغتها الاولى! .. وكانت نحيلة شاحبة مصابة بفقر الدم . وحين بلغت الخامسة كانت أقرب ما تكون الى الاصابة بالسل ، يتيمة شريدة منبوذة! .. فقد كتبت المرأة الى أم الصبية خطابا بعد خطاب ، دون أن تتلقى منها ردا . بل ان الام كفت عن ارسال المال لرعاية ابنتها ! .. وذات مساء زارت الحى خالة الصبية لشأن خاص ـ وكانت مثل أختها من نساء الهوى الناجحات ! ـ فلمحتها سارة ، وهى تلعب ، تهبط من عربتها الفاخرة أمام أحد البيوت ، وكانت قد رأتها فى مناسبات مماثلة سابقة فعرفتها .. واذا الغانية الانيقة تسمع صوتا حادا يناديها « تانت روزين ، تانت روزين ! » واندفعت الصبية نحو خالتها فى انفعال وقد لمعت فى عينيها دمعتان كبيرتان ، مثل لؤلؤتين حائرتين !

وتراجعت المرأة فى اجفال وضيق ، لكن الصوت الحاد لاحقها فى اصرار : « خذينى معك يا تانت روزين . ان هذه الجدران تخنقنى .. خذينى بعيدا يا تانت روزين . أريد أن أرى السماء مرة أخرى ، والازهار .. » .. وتجمع عدد من النـــاس على صيحات الصبية ، ولكى تتخلص المرأة من الحرج دفعت سارة الى داخل البيت وتقدمت الى مربيتها تسألها ايضاحا للامر ، وطيلة الوقت لم تنقطع سارة عن الصياح وهى تشرق بدمعها : « خذينى معك .. سأموت هنا ! »

وكانت صيحة روح يائسة تكافح فى سبيل الحياة .. ولكن ماذا تستطيع تانت روزين أن تفعل ؟ كان من غير المعقول طبعا أن تأخذ هذه الصبية الهزيلة المريضة معهـــا من الاوحال الى مسكنها الفاخر وعشاقها المترفين ، فحاولت أن تتخلص منهـــا بقولها : « سآتى وآخذك معى غدا .. »

لكن سارة أدركت بذكائها أن خالتها تسخر منها ، وأنها لن تأتى فى الغد ، فمضت الى النافذة ووقفت ترقب الخالة الجاحدة وهى تستقل عربتها ، ومسحت بمنديلها دمعة انحدرت على خدها .. واذ أوشكت العربة أن تنطلق ، ألقت الصبية بنفسها من النافذة الى الشارع .. فسقطت على قيد خطوات من عربة (تانت روزين) !

وحمل جسد الصغيرة المكسور الى بيت أمها !

الامومة الجاحدة .. مرة أخرى !

◆ **ونتيجة** لذلك الحادث ظلت سارة قعيدة بيت أمها سنتين كاملتين ، لا تكاد تقوى على مبـارحة الفراش .. ثم استردت عافيتها بالتدريج . وكانت قد بلغت السابعة من عمرها ، بغير أن تتعلم القراءة أو الكتابة ، فقررت أمها الحاقها بمدرســة داخلية ، وكانت هذه وسيلة طيبة للتخلص منها مرة أخرى !

وحين مثلت سارة أمام ناظرة المدرسة عاقها حياؤها عن أن تنبس بكلمة ، فقالت خالتها للناظرة موضحة : « انها غاية فى الغباء كما ترين ! » فتدخلت أمها فى الحديث قائلة وهى تتنهد : « لست أعلم من أين أخذت غباءها .. أنا واثقة انها لم تأخذه عنى أنا بطبيعة الحال ! » .. فقالت احدى المدرسات فى رفق : « ان لها عينيك الذكيتين يا سيدتى .. »

وقبلتها أمها وخالتها مودعتين ثم خرجتا .. ومضت الاولى الى بيتها لتضع طفلا جديدا !

ولكن لم تمض أيام حتى تلقت جولى نبأ من المدرسة مفاده أن سارة قد ثارت ثائرتها لامر ما فأصيبت بالحمى منذ بضعة أيام !.. وقطبت الام جبينها وهى تقطع قبلاتها لآخر عشاقها .. ثم استردت سارة من المدرسة لتودعها أحد الاديرة ، حيث لن تجرؤ الشقية على التمرد !

الكتب المحرمة .. والحلوى المهربة !

وخلال الاعوام القليلة التالية طردت الفتاة من الدير ثلاث مرات بسبب سوء تصرفاتها . وذات مرة أغمى عليها خلال احدى الحفلات المدرسية وتظاهرت بالموت ، حتى طار لب رئيسة الراهبات قلقا عليها ، وأخيرا فتحت سارة عينيها وتبين أن الامر كله كان خدعة !

وصارت الفتاة تقضى وقت فراغها فى قراءة الكتب المحرمة وأكل الحلوى التى يهربها اليها البواب !.. وذات مساء تولت قيادة ست فتيات أخريات فى مشروع فرار من عنبر النوم عن طريق النافذة ، ثم هبطن الحائط بواسطة سلم من قطع القماش المربوطة بعضها الى بعض . وفى ظهر اليوم التالى ضبطن جميعا وهن يلقين الاحجار على جياد حرس الملك أثناء تجوالهم فى منطقة مجاورة !.. وفى مرة أخرى ضبطت سارة وهى تغازل فارسا تسلق الجدار اليها ، وحين حاولت الراهبات منعها

تسلقت الحائط وهي فى قميص نومها واختبأت فى الظلام رغم البرد الشديد حتى أصيبت بحمى كادت تقضى عليها !٠٠ وكان ذلك السهم الاخير فى جعبة حماقاتها ، فلم تكد تبل من مرضها حتى أمرت بمغادرة الدير بالحسنى !

تتمرد على الزواج !

◆ **كانت** سارة وقتئذ فى الخامسة عشرة ٠ وكانت ما تزال نحيلة شاحبة تعانى سعالا عنيفا يهز جسدها الضئيل هزا ، وتحت عينيها دوائر من السواد تدل على أن الفتاة لم تشف بعد من فقر الدم ، وان كان شحوبها هذا يضفى على طلعتها لونا من الجمال النادر يضاعف من أثره تعبير عينيها وهى تتكلم ، فان وجهها يعكس كل انفعـــال تحسه ، وما أكثر الانفعالات التى تتواتر على نفسها !

وكان أبوها ــ الذى غدا الآن محاميا ناجحا ــ قد خصها بمبلغ لا بأس به من المال ، تقبضه حين تبلغ الواحـدة والعشرين ، بشرط أن تتزوج ٠ لكن سارة لا تريد أن تتزوج ٠٠ فهـــذا شخص يعرض عليها الزواج فتجيبه بالرفض٠٠ وذاك آخر يطلب يدها فتفرغ زجاجة شمبانيا فوق رأسه٠ وهذا « فيكونت » يتقدم اليها بنفسه ولقبه فيكون جزاؤه أن تصفعه على وجهه !

وينعقد مجلس العائلة ، ويتخذ قرارا فى أمر مستقبل سارة ، ثم تستدعى الفتاة ليقول لها « الدوق دى مورنى » ــ عشيق أمها ــ انهم سوف يرسلونها الى معهد للتمثيل ، لعلها تصلح للمسرح ٠٠ لكن وجه سارة يربد غضبا وتجيبه صائحة : «لست أريد أن أصير ممثلة ! » ٠٠ فتعلنها أمها أنها لن تنفق عليهـــا درهما واحدا بعد أن بلغت الواحدة والعشرين ، ويعرض عليها الدوق أن يصحبها الى مسرح الكوميدى فرانسيز لترى أية مهنة رائعة قد اختارها لها ٠٠ وتذهب سارة لتشهد المسرح ــ لاول مرة فى حياتها ــ فتجـــده « لا بأس به » ٠٠ ويزودها أهلها

بمسرحيات كورنى وراسين وموليير ، وبكتب تشرح أصول فن التمثيل ، كى تقرأها وتدرسها ٠٠ وتعطى مهلة قدرها تسعة أسابيع كى تستعد لتأدية امتحان دخول المعهد ــ وهو البرنامج الذى يستغرق عادة ثمانية عشر شهرا ! ــ ويحل يوم الامتحان أخيرا ، فتودعها أمها وهى ذاهبة لتأديته بقولها : « انك أغبى من أن تصيرى ممثلة ناجحة ، لكن التمثيل سوف يحميك على الاقل من الحماقات ٠٠ »

وتفرغ زميلاتها من تمثيل الادوار التى تخيرنها أمام قضاة هيئة التحكيم ، ويأتى دور سارة ، فتصعد الى المنصة وقد ابيض وجهها كالاموات ، وتعلن أنها ستتلو قصيدة « الحمامتين » ٠٠ فيقاطعها أحد القضاة : « مهلا يا آنسة ٠٠ أو لم تعدى فصلا من مسرحية ؟٠٠ انك هنا لتمثلى لا لتلقى قصيدة خرافية ! »٠٠ فتجيبه سارة صائحة وعيناها تقدحان شررا : « ســوف ألقى قصيدة الحمامتين ! »

وعندئذ يتبين فيها القضاة طبيعة الممثلة الاصيلة !

تفشل فى التمثيل فتحاول الانتحار !

◆ **ونجحت** سارة أثناء دراستها فى المعهد وامتازت على زميلاتها ، لا فى التمثيل ولكن فى اصطفاء الاصدقاء٠٠ وبوساطة نفوذ بعض هؤلاء الاصدقاء عينت ، بمجرد تخرجها ، ممثلة فى مسرح الكوميدى فرانسيز ، أشهر مسرح فى أوربا !

لكنها حين ظهرت على المسرح لاول مرة أصيبت بفشل ذريع ، وكانت آراء النقاد فى غير صالحها ، فتناولت جرعة من السم تأرجحت على اثرها أياما بين الحياة والموت !٠٠ وحين شفيت قالت لصديقاتها : « ان الحياة عقيمة ، وقد أردت أن أرى الموت وماذا يكون ؟ »

وفى تلك السنوات الباكرة من حياتها العملية لم تلق نجاحا على خشبة المسرح ٠٠ وفى ساعات فراغها التى تتخلل «بروفات»

الروايات كانت تتجول بين مقابر باريس وتجلس على أحجار القبور كأنها تزور عزيزا عليها ، وفي تلك الفترة أحبت « مساعد حانوتى » حبا عنيفا • لكنها أبت الزواج منـــه لانه رفض أن يدعها تحضر عملية تحنيط !

حياة كلها مغامرات ••

وكان طبعها شبيها بطبع النمرة غير المروضة• اشتبكت يوما فى شجار مع أقدم وأشهـــر ممثلة فى الكوميدى فرانسيز ، فصفعتها على وجهها •• ثم قدمت استقالتها من المسرح مؤثرة أن تلقى بمستقبلها كله فى مهب الرياح على أن تعتذر عن فعلتها وتطلب الصفح !•• واختفت على أثر ذلك من باريس • وكان أول نبأ سمعه أصدقاؤها بعد ذلك عنها أنها رؤيت فى اسبانيا تحضر احدى مباريات مصارعة الثيران وتغازل مصارعا أحمر الوجه !

ولم يستطع أحد ـ سواء من أصدقائها أو خصومها ـ أن يجاريها فى الحياة التى كانت تحياها•• فى سن الثامنة عشرة كانت قد أصبحت نخب كل مائدة فى المقاهى العامة !•• ثم كانت لها مغامرة غرامية مع أحد أمراء الامبراطورية الفرنسية وأنجبت منه طفلا •• لكن الامير نبذها هى وطفلها فمضت تتسكع من مسرح الى مسرح والطفل على ذراعها ، حتى وجدت عملا فى ملعب شعبى •• لكنها لم تلبث أن استقالت فى نوبة غضب !•• ثم تورطت فى صلة مع الممثل الاول بمسرح « الاوديون » ـ الذى يلى مسرح « الكوميدى فرانسيز » فى الاهمية ـ فعرض عليها دورا فى رواية جديدة •• ولكن مرة أخرى اقترن ظهورها على المسرح بفشل ذريع !•• **ولا عجب ، فقد كانت ـ كما وصفها الكسندر ديماس الذى كان بين النظارة ـ « رأس عذراء فوق جسم أشبه بعصا المكنسة ! » •• وقد كان خليقا به أن يقول : « رأس عذراء فوق جسم كمانعة الصواعق ! » ، فان جسمها كان يختزن كهرباء الكون بأسره !**

لكل مجتهد نصيب ..

◆ **وهى** الآن قد بلغت الثانية والعشرين ، وما زال الفشل حليفها على المسرح ، برغم صوتها الذهبى وسعيها الى النجاح والتفوق . لكنها لم تيأس ، بل واصلت دراسة أصول فنها ، وأعطت صوتها الفرص التى يتطلبها صقله وتهذيبه .. حتى لقد أجهدت فى سبيل هذه الغاية كل عصب وخلية فى جسمها الرقيق ، وأخضعته لارادتها !

وبفضل هذه المثابرة ، لم تمض سنتان أخريان حتى غدت .. مشهورة !

◆ **وقد** أحرزت نجاحها العظيم الاول فى مسرحية فرنسوا كوبيه « العابر » ، التي مثلت فى باريس لاكثر من مائة ليلة . ومثلت فى حفلة خاصة بقصر التويلرى فى حضرة الامبراطور نابليون الثالث ، بناء على طلبه !.. واذا أكثر النقاد الذين تحاملوا عليها فى البداية قدصاروا يدقون لها الآن الطبول ويتابعون خطوات تقدمها السريع !.. واكتشفوا فجأة أن وجهها النحيل وشعرها الذهبى هبتان من السماء ، وأعلنوا أن ردفيها العريضين الشبيهين بأرداف الرجال قد خلقا خصيصا كى تمثل أدوارهم ببراعة واتقان !.. ووصفها أحدهم بقوله : « **لا الذكاء ولا الفن له أثر فى اتقانها تمثيل المقطوعات الشعرية ، وانما يبدو أنها مقودة بغريزة سرية .. انها تلقى الشعر كما يغنى البلبل ، وتزفر الريح ، وتوسوس مياه الغدير ، وكما اعتاد « لامرتين » فى الزمان الغابر أن يلقى الشعر !** » .. **أما قسماتها الشاحبة فقد وصفوها بقولهم : « انها سحابة من الدخان ، ونفس من الضباب ..!** »

وبدأت تتواتر حولها الشائعات والاساطير ، وأطلق عليها شعراء باريس وفنانوها « سارتنا » .. وقال البعض انها ليست امرأة على الاطلاق ، وانما هى فتى متنكر فى ثياب فتاة !.. وزعم

آخرون أنها منحت ذات مرة متسولا أعمى خمسمائة فرنك لانه يشبه أحد عشاقها السابقين !٠٠ وانها تسير فى الشوارع متحدية الرجال للمبارزة ٠٠ وانها تدخن السيجار وتشرب الخمر القوية ٠٠ الى غير هذه الاقاويل التى استفاضت عنها في الصالونات والشوارع !

تتحدى الموت !

ورحبت ساره بهذه الاساطير ، وحاولت أن تحققها وتذهب الى أبعد منها ٠٠ قال لها الاطباء أن عمرها قصير فأوصت بصنع تابوت من خشب الورد ذى مقابض فضية وجعلتهم يصورونها فيه ممغضة العينين معقودة الذراعين ٠ كانت تلك طريقتها فى أن تثبت للموت انها تستطيع مواجهته ٠ ووضعت النعش بجوار فراشها بحيث يكون أول شىء يقع عليه بصرها فى الصباح٠ وصارت تحمله أينما ذهبت أو سافرت ، بحيث كانت كثيرا ما تعمد الى المبيت فيه ٠ وحين يزورها ضيوف كانت تقدم لهم الشاى عليه !

ولكى تستعيض عن مظهرها الواهن أحاطت نفسها بعدد من الحيوانات المفترسة ٠ فكانت كثيرا ما تصحبها الى المسرح قطة وحشية وشبل أسد ونمر صغير ، لتمرح فى غرفتها الخاصة أثناء التمثيل ! وكان يحرس مسكنها كلب ضخم لا يكف عن النباح ، مثل الكلب الذى يحرس أبواب الجحيم ٠ وكلما كان الناس يزيدونها مديحا كلما كانت تتملكها رغبة فى اظهار مواهبها الاخرى المغمورة ، كالرسم والنحت وتأليف الروايات والقصص ، وقد برعت فيها جميعا براعتها فى التمثيل ، فرسمت لوحات زيتية وتماثيل نصفية لاصدقائها ، عرضت فى معرض « الفنون الجميلة » ٠٠ وألفت مسرحية لقيت نجاحا هائلا ، وألفت رواية طويلة لم يصادفها الفشل ٠٠ ودرست الطب ، وأتقنت التشريح ٠ وبالاختصار كانت من أولئك النوابغ الذين يجدون فى تغيير العمل خير ترفيه عن نفوسهم !

وعملت ۰۰ وأحبت ۰۰ وواصلت غزواتها ، حتى ليمكن القول أن أسماء عشاقها ومغازليها أشبه بفهرس أبجدى لعظماء فرنسا فى القرن التاسع عشر !۰۰ والناقد الوحيد الذى حمل على تمثيلها فى عناد دعته مرة الى غرفتها الخاصة ۰۰ فخرج منها عبدا متيما بها !

ترفض المجد بقدمها !

انها الآن ممثلة « الكوميدى فرانسيز » الاولى ، حيث تخرج وتمثل بين جدرانه المقدسة روايات « راسين » و « كورنى » ، ولا يتكلم أحد أمام تمثال « موليير » الا هامسا ! (ولو ان مديرى المسرح لم يرقهم لون الحياة التى تحياها سارة برنار ، ولا نوع الدعاية التى تحيط نفسها بها) ۰ وحين زارت الفرقة لندن قوبل تمثيل سارة مقابلة حماسية منقطعة النظير ، حتى لقد بلغ ترحيب الجماهير بها عند ظهورها فى ليلة الافتتاح درجة جعلتها تمثل دورها فى رواية « فيدر » باجادة ملائكية ، مثل آلهة أثملها المجد !۰۰ ولكن لم يكد يهبط الستار حتى سقطت سارة على الارض منهوكة القوى ونزفت دما من معدتها ۰۰ **وفى اليوم التالى تسللت من فراشها برغم نصائح الاطباء واستقلت عربة الى المسرح ۰ لكنها أصيبت بالاغماء ثلاث مرات وهى فى غرفتها ، ثم مثلت دورها أخيرا وهى تحت تأثير « الافيون » ۰۰ فأغفلت من الرواية فصلا كاملا دون أن تشعر ، لكنها مثلت الفصول الباقية باتقان رائع أسال فى المسرح أنهارا من الدموع !**

وكانت تصر على أن تأخذ ابنها غير الشرعى « موريس » الى أفخر المآدب التى تقام فى أرقى مجتمعات لندن ، فكانت تطالب دائما بأن يقدموها باسم « مدموازيل سارة برنار وابنها » ۰۰ لكن هذا التصرف لم يلائم التقاليد المألوفة فى كواليس الفرقة العريقة ، فلامها مديروها على عدم تكتمها ۰۰ وعندئذ استقالت !

٠٠ وقال لها أصدقاؤها مشفقين : « انك تهربين من الجندية » فأجابتهم بقولها : « بل أنتقل من ثكنة الى أخرى ! » ٠٠ وكانت قد لمست السلطان الحقيقى لمواهبها على الجمهور ، وحلمت باحتمالات المستقبل بشأن اخراج مآس عاطفية تخرج عن حيز الكوميدى ٠ ففكرت أن تعد لنفسها مسرحا خاصا وتنتقى روايات خاصة ثم تواصل تجاربها الجريئة الظافرة !

أمريكا تثور على « غادة الكاميليا » !

◆ **وقامت** برحلة الى أمريكا كى تعرض فنها على الدنيا الجديدة ٠ وتقاطر سكان الدنيا الجديدة ليروا الفرنسية « المدهشة » التى أحدثت ارتباكا فى شئون أوربا وجعلت الجبال ترقص « المينويت » !٠٠ لكن الصحافة استقبلتها استقبالا ينذر بالسوء ، **وشكا النقاد من ازدحام برنامجها بروايات خارجة على حدود الادب والتقاليد بحيث لا تصلح لان تقدم على خشبة المسارح الامريكية ، وخاصة رواية من تأليف اسكندر ديماس الابن أطلق عليها « غادة الكاميليا » !**

وحين وصلت سارة الى نيويورك نصحها مديرو أعمالها بأن لا تمثل الرواية المذكورة ، فما كان منها الا أن قالت : « ألأن سمعتها ساءت ؟٠٠ حسنا ، سأغير اسم الرواية ٠ تستطيعون أن تعلنوا أننى سوف أمثل رواية « كاميل » ! »

وأعد المتزمتون حملة شديدة ضد الرواية الجديدة ، لكن هذه الحملة أتت بعكس المقصود منها ٠ فقد ضاعفت من شوق الجماهير لحضورها ! وحين جاء أوان تمثيل الرواية فى شيكاغو أرسل مدير أعمال سارة برقية الى اسقف المدينة قال فيها : « لقد اعتدت كلما زرت مدينتكم أن أنفق أربعمائة دولار فى الدعاية ٠ ولكن أما وقد توليتم هذه المهمة عنى ، فاسمح لى أن أرسل اليك نصف المبلغ كى تنفقه على الفقراء ! »

وظفرت « كاميل » بنجاح منقطع النظير ، فان أحدا لم يمثل مشهد وفاة « مرجريت جوتيبيه » بمثل الروعة التى مثلته بها سارة برنار ، ورغم جهل أكثرية النظارة باللغة الفرنسية فقد سالت دموعهم مدرارا لمجرد متابعتهم لحركات الممثلة العظيمة وتعبيرات وجهها !٠٠ وفى ليلتها الاخيرة بنيويورك تزاحم على باب المسرح خمسون ألف شخص لتوديعها ، وعند وصولها الى فرنسا استقبلها خمسون ألفا آخرون فى ميناء « هافر » مرحبين!

جولة مسرحية عالمية ٠٠

وفى باريس استأجرت « سارة » مسرحا خاصا لحسابها أطلقت عليه : « مسرح سارة برنار » ٠٠ وفيه بلغت آفاقا لم يسبق لها مثيل ، سواء فى الشهرة والاقبال ، أو فى الفضيحة !٠٠ صارت تهب نفسها في استهتار لعشاقها المستهترين بدورهم ٠ وطافت بلاد أوربا حاملة متاعا خاصا يشغل ثمانين حقيبة كبيرة ، ملأى بأدوات الزينة والحلى ٠٠ وفى كل مكان حلت فيه أذهلت النظارة بتمثيلها الرائع لمسرحيات « فيكتوريان سوردو » ٠٠ وفى جنوا كادت تموت من فرط زحام الجماهير المرحبة ٠٠ وفى سانت بطرسبرج جن الناس بها وانتزع الطلبة الجياد من عربتها ودفعوا مبالغ خيالية ثمنا لحصولهم على مقعد فى المسرح الذى تمثل فيه !

٠٠ لكن القدر لم يكن يعرف الاعتدال فى معاملتها ، فبقدر الترحيب الذى قوبلت به فى بعض البلدان ، قوبلت فى بلدان أخرى مقابلة عدائية ٠ **فقد أهينت فى « كييف » ، ورجمت بالحجارة فى أوديسا ٠ وفى السويد والنرويج انتزعت دموع الاعجاب والتأثر من عيون أهل الشمال الجامدة ٠٠ كما انتزعت عبارات الاطراء من فم البرنس أوف ويلز ، والدموع من عينى قيصر روسيا ، والاهانة من الحكومة الالمانية !٠٠** وحين عادت الى باريس ارتدت حليا أهداها اياها أكثر من رأس متوج فى أوربا !


ادمون روستان

◆ **والعجيب** أنها بعد مغامراتها الغرامية مع أعظم رجال فرنسا ، تزوجت أعظم وغد فيها ـ ويدعى « جول بول داملا » ـ وكان أنيقا مجردا من المبادىء، كالشيطان نفسه ، « مسلكه مسلك الجنتلمان ، وعقله عقل شمبانزى ! » وكان مدمنا «المورفين» •• وخلال السبع السنوات التى دامتها حياتهما الزوجية قاست منه سارة الامرين ، وأخيرا مات نتيجة اسرافه فى ملذاته واستهتاره!

لكن هذا الغرام الفاشل لسارة يقابله غرام آخر ظافر ، ففى سن الخمسين تورطت فى آخر حب لها مع « ادمون روستان » ، وكان روستان حين التقت به أول مرة شاعرا مغمورا ، فصارت تأخذه فى نزهات طويلة فى عربتها ، يقرأ لها خلالها أشعاره ومسرحياته •• والتقت روحاهما فى حب عظيم ألهم روستان رواياته الخالدة التى من أروعها : «سيرانو دى برجراك » •

◆ **وقد** مثلت سارة برنار ألف مشهد للموت فى رواياتها، لكن قواها كفنانة كانت تغلب الموت دائما •• كانت تعمل أربع عشرة ساعة وخمس عشرة ، فى الوقت الذى كان فيه أقوى رجال فرقتها يخورون من التعب • **وكان شعارها : « الافضل هو دائما عدو الحسن ! » وبهذا الشعار مضت تهدف الى الكمال غير المحدود ، وتنتقل من مجد الى مجد ، ومن حسن الى أحسن •• فأدهشت أطباءها الذين توقعوا لها عمرا قصيرا ، وعمرت رغم أنفهم تسعة وسبعين عاما !**

فنانة .. حتى النفس الاخير !


سارة برنار .. فى دور (هملت)

وأثنـــاء تمثيلها « هملت » سقطت ذات ليلة على خشبة المسرح فأصيبت ســـــاقها بمرض ال«فيليبتس» ـ التهاب الوريد ـ وتقلصت مع مضى الزمن ، حتى صارت تسبب لها آلاما مبرحة ، وباتت وقفتها على المسرح خلال التمثيل نوعا من الاستشهاد .. وزحف السم فى ساقها تدريجيا حتى استلزم الامر بتر ساقها فى سـنة ١٩١٥ ـ وكانت فى الواحدة والسبعين ـ ومنذ ذلك التاريخ صارت تمثل أدوارها وهى جالسة على مقعد ذى عجلات، فان سحر فنها ومجد صوتها لم يتأثرا بالعاهة التى أصابتها ، بل ان العاهة ضاعفت على العكس من روعة تمثيلها وحدة تأثرها بالمآسى التى تصورها .. وذكر الناس جبارا آخر من جبابرة الفن لم تقعده عاهته عن أن يصوغ احساساته سحرا للناس: بيتهوفن!

وفى مقعدها ذى العجلات حملت سارة برنار سنة ١٩١٦ الى الجنود فى ميدان القتال ، كى تساهم فى الترفيه عن نفوسهـم

وحين داهمها الموت أخيرا ، فى سنة ١٩٢٣ ، كانت سارة تكتشف مجاهل ميدان جديد من ميادين الفن .. فقـد تعاقدت مع شركة سينمائية أمريكية عــلى تمثيل فيلم لحسابها ، لكن صحتها لم تمكنها من مغادرة بيتها ، فالتقطت مناظر الفيلم فى غرفتها الخاصة . وحين كانت تعجز عن البقاء جالسة على مقعدها كانت تهمس للمخرج : صورونى فى الفراش !

وهكذا عاشت سارة برنار ـ وماتت ـ للفن !



خيال .. مستوحى من الحقيقة !

◆ فى هذه القصة بل القطعة الادبية الرائعة تتخيل الروائية الانجليزية المعاصرة ((فيليس بوتوم)) رسالة من ممثلة مشهورة الى ابنها الوحيد ، تدافع فيها عن سيرتها وتفند التهم التى الصقتها الشائعات باسمها ، ثم تعترف بالحقائق التى شابت حياتها .. ولعل القارىء يستطيع من لهجة الرسالة المنطوية على الصراحة الصارخة ، والانانية ، والغيرة ، والاسراف ، والغطرسة .. أن يتبين من خلال السطور شخصية الممثلة الشهيرة التى ترمز اليها المؤلفة ، والتى لا يمكن أن تكون غير سارة برنار !

ابنى الحبيب

عندما تقرأ هذه الرسالة تكون حياتى قد انتهت ، وذكراى تحت رحمة عالم غزوته يوما وكنت سيدته ومولاته ..

فلا تبتئس اذا هونوا من شأن غزواتى السابقة أو قذفوا قبرى بالهجو والتشهير ، فتلك أمور قد احتملتها طيلة حياتى ، كانت بعض الثمن الذى دفعته مقابلا لانتصاراتى .. لكنك قد تسأل نفسك : «**هل هذه القصص التى تروى عن أمى صحيحة؟**» **وقد ينتاب قلبك القلق ، فمهما يكن من شىء ماذا تعرف أنت عنى ؟ لقد شاءت العناية الارضية أن تمنحك فى شبابك الباكر كل الاشياء المادية التى احتجت اليها ، وهل شهدت فرنسا طفلا كان له أكثر مما أعطيتك ؟** .. ورغم ذلك فقد كنت أنا بالنسبة

لك مخلوقة غامضة، تقتحم حياتك بين الحين والحين بطائفة من العواطف لعلك كنت أصغر وأشد خجلا من أن تشاطرها اياها !

أنى لك اذن أن تعرف حياتى؟ لقد قالوا لى انك تقرأ كل وصف لتمثيلى تقع عينك عليه فى صحيفة من الصحف، وأن حجرتك مليئة بصورى .. لكنك حين كنت أرفعك بين ذراعى وأنت طفل كنت تنفر منى وتحاول الابتعاد ، وعندما كنت أهتف بك جذلة :



سارة برنار وولدها

« تكلم ، تكلم ، حدثنى عن نفسك ! » لم تكن تحدثنى بشىء !

.. وفى سنوات حياتك التالية صرنا نلتقى أكثر .. وغدوت أنت شابا يأبى أن يسلم قياده لى ، أما أنا فقد نفد صبرى ، فان تيار حياتى الفنية الجارف لم يكن فيه مجال أو وقت لصلة خاصة طويلة الامد !

وقد ساءني نبأ زواجك المبكر .. واعتبرت زوجتك «أنجيل» امرأة متوسطة ــ ولقد طالما كنت أحتقر النساء المتوسطات ! ــ ولم نعد نلتقى بعد ذلك الا لماما .. ومع ذلك فقد احتفظت بك فى قلبى .

وحسبت يوما ــ وربما كنت ظالمة فى ظنى ــ أن كوارثى المالية قد أحنقتك وأصابتك بخيبة أمل ، لكنى دبرت أمر هذه المشكلة بحيث أمكننى ارضاء دائنى أخيرا .. **والذين لم يقبضوا دينهم مالا ، قبضوه شرفا وفخرا : خدمونى واعترفت بخدماتهم !**

ولقد خلفت لك حليا وجواهر تساوى فدية لملك . والناس يقولون اننى كنت مسرفة ، مستهترة فى بذخى .. وقد يكون

هذا صحيحا ، فانني كنت « ملكة » المسرح ، ولن تخلفني ملكة أخرى يوما !.. وأحسبني أستطيع القول أن هذا الاسراف كله من حقى !

ابنى العزيز

اذا أردت أن تعرف سر حياتي ، فهاك هو : انني كنت ممثلة بجماع كياني ! .. ان كثيرات قد وهبن الفن « بعض » كيانهن، وأخريات وهبنه الشطر الاكبر من كيانهن ، أما أنا فقد وهبته كياني بأكمله !

وقد جرؤ النقاد على الزعم بأن « الايطالية » كانت أقدر مني في التمثيل .. وأنا أبصق في وجوههم ، فما من أحد رأى كلينا نمثل نفس الدور يستطيع أن يقر هذا الزعم .. فان صوتي يرن في آذانهم ، وجمالي يمثل تحت أبصارهم ! أما هي فلم تكن نظراتها خلابة ، ولا وجهها معبرا .. جمالها الوحيد كان في يديها . **ومع ذلك فأنا مازلت أعترف بأنها كانت فنانة جادة، ولو لم تخن مواهبها وتضحى بها من أجل غرام رجل ، لاحترمتها .. !**

انها كان يمكن أن تكون ـ بل كانت فعلا في بعض المواقف ـ ممثلة عظيمة . كانت ـ فيما أعلم ـ الممثلة « الاخرى » الوحيدة الممتازة في عصرنا .. لكنها ضحت بماضي أربع عشرة سنة من حياتها المسرحية من أجل قبلات رجل ! كان عذرها أنها ذات قلب محطم .. وأنا أقول لك ان هناك شيئا واحدا فقط يستطيع أن يحطم قلب الممثلة الحقة ، هو أفول نجمها !

.. ثم زعم الانجليز بدورهم ـ وهم شعب من البرابرة ـ أن لهم ممثلتهم أيضا . يا للمسكينة ! .. رأيتها مرة تمثل ، فاذا هي لا تستحق حتى الاحتقار . انها بلا طابع خاص . مجرد مخلوقة عاطفية طيبة القلب لا ترى بأسا في أن تخضع موهبتها لممثل هو عبارة عن بهلوان مغرور ! .. في الوقت الذي نبذت

فيه عرضا تقدم به اليها أكبر عباقرة عصره ، متطوعا بأن يكتب جميع مسرحياته خصيصا من أجلها ، كى يخلق بمعاونتها مسرحا انجليزيا يضارع مسرحنا الفرنسى ٠٠ فكان جزاؤه أن تركته ينتظر موافقتها حتى أتى تقدمها فى السن على الموهبة الضئيلة التى كانت لها ، قانعة بأن تخدر أعصابه طيلة فترة الانتظار بخطاباتها الجذابة ٠٠ يا آلهى ، أية دمية تافهـــة كانت تلك « الفنانة » !

أسوق لك يا ابنى العزيز هذين المثلين لانك عندما كنت أنا فى قمة مجدى كنت ما تزال يافعا ، عاجزا عن تمييز الفارق بين فن تينك المرأتين ، وفنى ! ٠٠ فلتقنع الآن بأن تعلم ــ أيا كان رأى النقاد المعاصرين ــ أننى كنت «هائلة» !

وأنا امرأة كريمة ، أميز التفوق حيثما أراه وألمسه ٠٠ وفى أيامى الاخيرة الاقل ازدهارا كان ثمة فنانان آخران لو قدر لى أن أعرفهما مبكرا لكان لهما بعض الحق فى أن يشاركانى عالمى ومجدى : انهما « بافلوفا » و « شاليابين » ٠٠ ولم يكن أيهما غريما بالمعنى الصحيح ــ ففى الفرع الذى تخصصت فيه من أفرع الفن ليس لى غرماء البتة ! ــ لكنهما فى فرعهما الخاص قد استحقا منى أن أحبيهما كندين لى !

وانها لمأساة أن لا يستطيع أحد الآن أن يشهد انتصاراتى العظمى ، دراساتى التى طرحتها أمام العالم : للمرأة العاشقة٠٠ والمرأة المحطمة ٠٠ والمرأة المحتقرة ٠٠ والمرأة القديرة على اضرام جذوة عاطفة أشد حرارة من نيران طروادة ! ٠٠ وعندما أموت سوف يكتب الناس مـرة أخرى عن هذه الامور ٠ ولـكن من فى مقدوره أن يعيد للعالم عينى ٠٠ وصوتى ٠٠ النار التى أحرقت حياة الرجال !؟

لقد كانت هناك لحظات ــ على حد قول أحد المعجبين بى ــ كان المسرح كله ينبض فيها كقلب واحد ! ٠٠ من ذلك مثلا

موقف كان يمثلنى وقد صرت منبوذة ، صارحنى عشيقى بأنه لم يعد يحبنى ٠٠ فلم أصدقه فى البداية ٠ ولكن حين تمثلت الحقيقة لعينى استدرت نحوه كنمرة هائجة ، وصببت جام غضبى عليه ، ثم ٠٠٠ وقفت ساكنة ، وظهرى الى الحائط ، ويداى تنزلقان على الجدار كما لو كان يهوى بى الى هاوية سحيقة ٠٠ وقلت فى هدوء – حتى لقد خرجت الكلمات من حلقى كالانفاس الخائرة : « اذن ، فقد انتهى كل شىء ؟ » ٠٠ وتتابعت صور حياتى جميعا أمام عينى ٠ لم يكن بصرى موجها الى حبيبى وانما كان ينفذ فى رعب الى أعماق قاع النفس البشرية التى تعانى الوحدة والوحشة القاسية ٠٠ فنفذت أبصار وبصائر جميع النظارة – كل رجل وامرأة فى المسرح – الى ذلك القاع ٠٠ وكانت ما تزال تحدق فيه حين هبطت الستار ٠٠ فلم يستطع المتفرجون أن يصفقوا ٠٠ ولكن حين أحسوا بقلوبهم تنبض مرة أخرى ضج المسرح كله بالهتاف لى !

وحتى الآن ، لا يضعنى فى مكانى غير نقاد قليلين ٠٠ لكن بعض أفراد الجيل المنصرم ما يزالون على قيد الحياة ، وهم يذكرون ماذا كنت فى شبابى ، أو فى الاعوام الاقرب الى الكمال، حين جاوزت مرحلة الشباب الباكر – بمخاوفه وقلاقله – وأخذت أقطف ثمار كفاحى ٠٠ عرفت حقيقة ما أريد من الحياة وما أعتزم أن أفعل فيها ٠٠ بل عرفت ما هو أجل وأخطر شأنا من ذلك ، عرفت من أكون !

تلك هى لحظة السطوة والسيطرة الحقة فى حياة كل امرأة، قبل أن يعضها الزمن بأنيابه الحادة : حين تعرف كل مواهبها ونواحى سحرها وقوتها ، وكيف تحسن استخدام هذه الاسلحة ضد عدوها الخالد : الرجل ! ٠٠ لقد قادت جولييت روميو الى حتفه ، لكن كليوباترة استمتعت بسيطرة أقوى حين انتزعت أنطونى من المعركة التى كان سيظفر فيها بالعالم كله ! ٠٠

ولكن اذا بلغت امرأة قمة سطوتها فى نهاية شبابها فماذا يكون شأن الممثلة ، لا سيما اذا كانت أعظم ممثلات عصرها ؟ ٠٠ كانت الدنيا تزخر بعشاقى ٠٠ بل كنت اذا ركبت عربة أبى السائق أن يأخذ منى أجرا ، قانعا بالقول لى : « كل ما أسألك اياه أن تبتسمى لى ! »

حدث لى ذلك مرارا فى باريس ، موطنى ٠٠ لم أكن أطالب بدفع مبلغ مقابل أى شىء فى تلك الايام ، وانما كان حسبى أن أدع الناس يدفعون عنى ٠٠ ومقابل كل ناقد كان يكتب عنى كممثلة ، كنت تجد مائة يكتبون عن عشاقى !

*

وطبيعى أنه كان لى عشاق ، بالقدر الذى استلزمه فنى ٠ **ويزعم الانجليز اننى أنجبت من ملكهم خمسة أبناء ، وهو زعم باطل ٠٠ وهل كنت أقامر برشاقة بدنى خمس مرات ، ولو من أجل ملك ؟ ٠٠ لقد أنجبتك أنت لاننى كنت شابة ، ولم أعرف لى شاغلا أفضل ٠٠ فوق انى كنت زوجة ، وفى رأيى أن الزوجة تدين لزوجها بطفل واحد ٠٠ كما أن الممثلة تدين لقلبها بكل ألوان العواطف السامية ٠ وليست فى حياة المرأة عاطفة أسمى من عملية « الخلق » هذه ، عندما تشق الام باب كيانها كى تنتج من الهول والالم : حياة جديدة !**

ولو علمت فى ذلك الحين أية ممثلة عظيمة كان مصيرى أن أكون ، لربما ترددت فى المخاطرة ولو بجزء من ذخيرتى الجثمانية ، لكننى لحسن الحظ كنت أجهل ماذا سأكون فى مستقبلى ٠٠ ومن ثم غدوت أما !

كنت فى شبابى أملك أن أقود الرجال الى حتفهم وهلاكهم ، لكننى كنت أملك أيضا أن أنقذهم منه ! وفى رأيى أن المرأة ينبغى أن تكون « رحيمة » ٠ انها ليست ملزمة بأن تظهر الرحمة كل حين ، ولا أن تضار بها ، لكني أعتقد أنها يجب أن تتحلى بها !

وغير صحيح ما يقـــال من أننى كنت مستهترة ، أو اننى اتخذت لى يوما عشيقا بدافع « المصلحة » .. فقد كان فى طوقى أن أغدو خليلة أعظم رجلين على ظهر الارض . كان كلاهما امبراطورا ، ولكن بفعل المصادفة الغريبة فى الحالتين لم تتـم يوما هذه الصلة التى دبرت وعرضت على بعناية واحكام !

كان أكبرهما سنا يعجبنى ، ويتكلم لغتى باتقان تام ، ويأتى ليحضر تمثيلى بانتظام ، ويتقرب الى بلباقة بارعة وفقا للاصول المرعية والتقاليد المألوفة. واستقبلته أخيرا فى غرفتى الخاصة، فلمست فخورة مبلغ تدلهه فى حبى . وقد راقنى هو بدوره وقبلت أن أتناول العشاء معه على انفراد فى الليلة التالية ..

وقد حرص على أن يحيط دعوته بالسرية التامة .. وكانت الحجرة التى استضافنى فيها فاخرة رائعة ، مليئة بأزهارى المفضلة : « الاوركيد » .. وكان يفهم فن الضيافة حق الفهـم ، وأعد لى مأدبة مثالية جديرة بالمناسبة . وبدوت أنا فى كامل بهائى ، وكنت وقتئذ فى الخامسة والثلاثين . وفى الخامسة والثلاثين لم تكن فى فرنسا بأسرها امرأة تستطيع أن تضارعنى من حيث المظهر .. علاوة على صوتى الذى أطلقوا عليه « الصوت الذهبى » ، وأعتقد أنهم كانوا على حق !

وتحدثت الى الامبراطور عن نفسى ، فأصغى..وأكلنا وشربنا بشهية ولياقة .. وحدثت نفسى فى سرى : « ياله من رجل مهذب متمدين ! » .. ولماذا نغض أحيانا من قدر المدنية ؟ لقد وصفها أحدهم بأنها الفارق بين أرنب مطهى وأرنب مذبوح .. انها تجعل الاشياء الثقيلة تبدو خفيفة .. وتوشى ــ بالطلاء الساحر أو القشرة المذهبة ــ المادة الخام التى بغير ذلك تبدو قبيحة المنظر مدعاة للضحك..وأستطيع أن أقول أن ذلك الامبراطور الذي أتحدث عنه قد خلبني بسحره ، وقليلون هم الرجال الذين

خلبونى خلال حياتى الطويلة ٠٠ فقد كانت مهمتى أنا أن أخلبهم، لا أن يخلبونى !

وبعد ذلك ـ لدهشتي ـ لم يحدث شيء! ٠٠ لم تفض تلك المقدمات الرائعة الى نتيجة ! ٠٠ فلجأت مرة أو مرتين الى ارسال اشارة معينة ـ سواء بالعين أو بالصوت ـ لكني لم أتلق عليها جوابا ! ٠٠ تلقيت لطفا ، وظرفا ، وتهذيبا ، وشهامة ٠٠ ولكن لا شيء أكثر ٠٠ !

وعندما دقت الساعة العاشرة قال لى الامبراطور : « أنا موقن انك ترغبين فى النوم مبكرة ، فى الليالى التى تستريحين فيها من التمثيل ، أما أنا فمن عادتى أن ألعب مباراة من «البريدج» قبل أن آوى الى فراشى ! »

ولما كنت بدورى « متمدينة » فقد أخفيت دهشتى ، وأبديت له شكرى الجزيل على حسن تقديره ، ورقة شمائله ٠٠ فتناول يدى وقبلها ٠ وفى اليوم التالى أرسل الى حلية ثمينة ، لعلهـا ليست أجمل ما فى مجموعتى !

وبعد سنوات قلائل التقيت بصديق لى ، كان فى الوقت عينه من خاصة أصدقاء الامبراطور ٠٠ فسألته أن يفسر لى ذلك التصرف الشاذ ، لكنه تردد برهة ، وحين ألححت قال أخيرا : « أعتقد أن جلالته أحس بأنك لا تعبئين كثيرا بأن يشاطرك عرشك الذى تنفردين به ٠ ولما كان هو قد انتظر طويلا حتى ارتقى عرشه هو ـ فقد عمرت أمه الملكة الى مابعد سن الشيخوخة المألوف ـ فلعله كره أن يتنازل عنه مرة أخرى لامرأة شابة » ٠٠وكان ذلك كل نصيب أسطورة الاطفال الخمسة من الصحة ٠٠!

*

أما الامبراطور الآخر فكان أصغر منى سنا ، وكنت حين التقيت به قد جاوزت الاربعين ٠ ولم أكن قد فقدت روائى ، لكني كنت في تلك المرحلة من العمر التي ينبغي فيها أن تصون

المرأة العاقلة حسنها من أن يمتهن ٠ وهكذا لم يكن فى نيتى أن أرضخ لجلالته٠٠لا سيما وأن وطنه كان عدوا لوطنى، ومغازلته لى كانت تفيض غطرسة وابتذالا ٠٠ ومن ثم قبلت دعوته للعشاء لا لشيء الا لكى ألقى عليه درسا قاسيا٠٠وأعتقد أنه وعاه جيدا !

كانت الفكرة المسيطرة عليه أن النساء جميعا يمكنأن يشترين أو يستذللن ٠٠ فسلك الى اغرائى مسلكا خشنا ينقصه الصقل والرواء ، وحاول أن يرشونى بأشياء تافهة القيمة ، تنم عن الشح والتقتير ـ ولو أن جوابى لم يكن ليتغير مهما أسرف فى الاغداق على ! ـ وأحسب أنه لم يكن رجلا شريرا بقدر ما كان فى تقربه الى أقرب الى أسلوب الفتى المراهق ، بل الى سماجة الطفل غير المهذب ! ٠٠ وقد صددته بسهولة ، وكان من الغرور بحيث استطاع السيطرة على أعصابه واخفاء مضايقته ٠٠ !

وقد لقيت ملوكا آخرين كثيرين ٠٠ لكنهم كانوا أصغر شأنا من أن يظفروا باعتبارى ، بعد أن أبيت نفسى على أذكى اثنين من ملوك عصرى !

*

وقد اتخذت لنفسى أربعة عشاق فقط ، فاذا سمعت ياولدى عن آخرين فاعلم انها أكذوبة مختلقة بدافع الغرور أو الانتقام ! ٠٠ كنت قد تزوجت من أبيك وأنا فى السابعة عشرة ، وعشت معه مخلصة حتى بلغت أنت الثالثة من عمرك ٠٠ ولم أتزوج بعد ذلك قط ٠ **أما الممثلة الانجليزية التى أشرت اليها فقد اتخذت لنفسها ثلاثة أزواج وعشيقا واحدا ، الامر الذى اعتبره منافيا للاخلاق ! ٠٠ فان الخلط بين البيوت والانساب فى الاطفال جريمة لا تغتفر !**

٠٠ وقد كنت وأبوك نتشاجر كثيرا ٠ كان يريد أن يتدخل فى عملى ، وتبينت أنا أنه « بورجوازى » لا يطاق ! وأذكر أننى كنت في الحادية والعشرين حين اتخذت عشيقي الاول « أرمان

نيفيل » ، الذى كان بمثابة «الفتى الاول» فى فرقتى المسرحية. وكان شابا أنيقا وممثلا مجيدا ، فأحببته الى درجة التفانى .. وياللعذاب المروع الذى قاسيته فى حبى ، وقاساه هو فى حبه لى ، ولا فخر !

كان غرامنا متبادلا ، وكنت أحيانا أعانى غيرة فظيعة تحطم كبريائي وتجعلنى فى مثل بؤس الطفلة الضالة ، وكانت الرغبة الضارية تنهشنى كالمغص الحاد ، وكم من مرة فكرت فيها جادة فى الانتحار ، وأحيانا فى القتل ! .. وعشنا معا على هذا المنوال عامين . والعاطفة فى تلك السن تكون مدمرة ، لكنها تنفع الفنانة . وهكذا لبث تمثيلى يتدرج كل يوم من حسن الى أحسن، ويقترب من درجة الكمال .. وسرعان ما تفوقت فى هذا المضمار على أرمان ، ياللفتى المسكين ! اننى أحس الآن بنوع من العطف عليه ، فبالرغم من وسامته ومن اعجاب النساء به ، أسقطته من على خشبة المسرح .. وكان ذلك أكثر مما يستطيع أن يحتمل ..

ولكن هل كان يسعنى أن أسىء الى فنى كى أنقذه من هاوية الفشل ؟ أستطيع أن أفخر بأن ذلك « الجبن » لم يخطر حتى ببالى .. وقد تألمت من أجله ، وتألمت معه ، لكن مثل هذا الالم لا يؤدى الى نتيجة .. وفى النهاية أدمن الشراب . ولقد طالما أقرضته نقودا بعد ذلك !

*

أما عشيقى الثانى « بول ليفى » فلعلك سمعت عنه كثيرا.. بل أذكر أننى أخذته مرة أو مرتين ليراك ، حين كنت فى مدرسة الليسيه . وكان بول مليونيرا ، ذا خبرة . وأستطيع أن أقول لك يا حبيبى انه ما من امرأة ظفرت يوما بعشيق مثله ! .. كان ظريفا ، كريما ، يراعى احساس غيره ، ثم — يا الٓهى — أى ذكاء كان له ! .. قط لم أصادف شخصا مثله ، أو أحظ

بصديق من طرازه ! كنت فى نظره أجمل كنز فى الوجود ، والجوهرة التى لا يتردد فى أن يضحى بمجموعته كلها فى سبيلها • ولست نادمة على أنى وهبته أروع عشر سنوات فى حياتى ! •• ولن أصف العناية التى كان يبذلها نحوى ، والتفانى الذى جعله يلم بدقائق أدوارى التمثيلية حتى حفظها أكثر منى، وصار يزودنى بانتقاداته الصائبة كما لو كان يستمدها من عصارة دمه وحياته • وما من رغبة لى فشل فى تحقيقها ، أو تردد •• ولا هواية لم يشاركنى اياها •• وحين كنت أشتبك فى شجار ــ الامر الذى كان يحدث كثيرا خلال حياتى الفنية ــ كان يكرس قواه لتدمير عدوى •• ويوم كنت أبدى ميلا نحو شىء ما كان يبذل ما فى وسعه لارضاء ميلى !

صحيح انه كان رجلا قبيح الخلقة ، ضئيل الجسم ، لكنى لم أعد ــ بعد أرمان ــ أنشد الوسامة والجمال فى الرجال ! وفيما عدا ذلك كان بول غنيا فى كل شىء، ويملك «لباقة» القلب، وذلك الشىء الذى يقهر الرجال الآخرين ويطلق فى النساء العنان لكبريائهن ومرحهن •• وكانت له زوجة وأسرة ، لكنهما لم يعنيا كلينا فى شىء !

وانى لانظر الى تلك السنوات العشر التى استمرتها علاقتنا باعتبارها أعظم فترات حياتى توفيقا ونجاحا • كان يضفى على فنى وسعادتى الخاصة زادا عاطفيا لا ينفد • ومثل هذا الهناء لا يمكن أن تكون له غير نهاية واحدة : مات بول فجأة ، بأزمة قلبية ••• بينما كنت أنا فى المسرح ! وحين باغتته الازمة قال لمن حوله : « لا تخبروها •• الى أن تنتهى من التمثيل ! » •• فلما وصلت كان قد لفظ نفسه الاخير !

وقد خلف لى ثروة كبيرة، أنفقتها كلها خلال السنوات العجاف التى تلت • أما ذكراه هو فلم أفقدها قط •• فاننى لم أعرف بعده رجلا آخر يستطيع أن يكون ــ الى جانب عاطفته ــ «صديقا» للمرأة التى يحب !

وقد سارت الامور معى من سىء الى أسوأ بعد موت بول ٠ كان الطور الاول من شبابى قد انصرم ، ولم أكن قد تعلمت كيف أواجه عدوى الجديد : الزمن ! ٠٠ شعرت كأنى عزلاء من السلاح ، في دنيا كلها أعداء !٠٠ ولكن ـ أى بنى ـ من الخطأ الزعم أن القوة الوحيدة التى تملكها المرأة هى جمالها٠٠ فقد علمتنى الايام أن المرأة لكى تقهر الرجال تستطيع أن تكون على أى نصيب من الجمال ، بشرط أن تستعين بما يكفى من الحدة والجرأة والاقتدار ! ٠٠ وقد كنت فى شبابى أسمح لنفسى بقدر من الغضب اذا اقتضى الامر ، وقلما كان يقتضى ٠٠ والآن أسمح لنفسى بالمزيد منه ، وما أكثر ما صارت تحوجنى اليه الاحوال !٠٠ ذلك أن اندفاعى كالنمرة الهائجة ، الى حد ادخال الرهبة على قلوب الرجال ، صار عندى لونا من ألوان الثمل ، واللذة ، والافتتان !

وبالنسبة لامرأة لها مثل طبعى ، الذى ألف أن يأمر فيطاع ، يوجد دائما شيء من الترفية عن النفس فى التغلب على عقبة من العقبات ، وتمزيقها اربا اربا ٠٠ وقد كانت لى حادثة هزت فرنسا بأسرها ـ ولعلك تذكرها ؟ ـ حين أبيت أن أعير مسرحى للممثلة الايطالية ٠٠ ولم لا أرفض ذلك ؟ لم يكن لها ما تفعل فى باريس ، فان وطنها ـ ايطاليا ـ كان وحده الذى يلائم مواهبها٠ وكانت قد ساءتنى حفلاتها التمثيلية الاولى فى فيينا ـ التى استقبلتها بمثل الترحيب والحماسة اللتين استقبلتنى أنا بهما ، نظرا لما جبل عليه النمسويون من خفة العقل والتهور فى التقدير ! ٠٠ أما فرنسا فالامر فيها يختلف ، فلماذا يرغب الفرنسيون فى مشاهدتها وعندهم مثلى ؟

وقد بدأت القصة بمحاولات من جانب هيئة المسرح ، لاقناعى بالقبول ٠٠ وخلالها جرؤ أحد الاعضاء على أن يقول لى: « سيدتى ، ان باريس سوف تشهد تمثيلها ! » ٠٠ فأجبته على

الفور : « سيدى ، أنا باريس ! » ٠٠ وهكذا عاد أعضاء اللجنة بخفى حنين ٠٠

ومع ذلك فقد جاءت الايطالية ، بل نجحت فى استئجار مسرح ، وقوبلت بترحيب كبير ٠ وقد قلت لك انها ممثلة جيدة، **ولو لم تكن من فئة النســـاء اللواتى يسمحن للرجال باتلاف مواهبهن ، بدلا من صقلها ، لاستطاعت أن تبلغ شأوا كبيرا ٠ صحيح أن عينيها ليستا جذابتين ، لكن يديها جميلتان ٠٠ فضلا عن أنها تعتز بكرامتها ، وتعرف كيف تستغلها فوق خشبة المسرح ٠٠ ولكن ، بماذا أصف عشيقها ذاك الذى من أجله هجرت المسرح وهى فى قمة المجد ؟ حسبى انه لو كان وقع فى يدى لفرمته فرما !**

وقد أغضبنى الحادث السالف على باريس، فتركتها الى أمريكا، حيث استقبلنى القوم كما لو كنت آلهة هبطت من السماء ! ولكن برغم اننى ابتهجت حقا بتلك الحفاوة ، فاننى لم أســتطع أن أهضم نوعا من الغباء والخرق صادفته هناك٠ والامريكيون ليسوا برابرة مثل الانجليز ، لكن المرء لا يستطيع فى بلادهم الا أن يحس بحنين الى باريس !

وأثناء عودتى من أمريكا التقيت بأمير روسى يدعى « ايفان أوبلنسكى » ، وكان شابا طيبا أثر فى حبه لى واعجابه بفنى ٠ وكان بدوره فاحش الثراء ٠ ولما كنت قد أنفقت فى أمريكا مبالغ طائلة ، برغم نجاح جولتى التمثيلية فيها ، فقد وجدت فى رفقة أوبلنسكى لى حلا موفقا سعيدا لوحشتى ٠٠ **لكن غيرته الوحشية العنيفة جعلته مصدر خطر بالنسبة لى ٠٠ وفى أوقات أخرى كان يبدو وديعا كالطفل ، حتى لقد ذكرنى بشوبان ، لا سيما وأنه كان يتذوق الموسيقى ٠٠ وحين سافر الى روسيا أخذنى معه الى هناك ، حيث مثلت على مسارحها بنجاح هائل ـ فالروس**

شعب يقدر الفن - ثم استمتعت بفترة من الراحة ، فقد كانت لايفان ضياع واسعة ومنازل مريحة فى كل مكان .. بل ان الجواهر التى تركتها لك كانت أكثريتها منه . وكان كثيرا ما يبيع ضيعة أو اثنتين كي يوفر لى مطالبى جميعا !

وقد أرادنى أن أكون زوجته ، وكان أبوك قد مات ، وأشرفت أنا على الخمسين . وعندئذ - ولاول مرة - فكرت جديا فى الزواج مرة أخرى . لكن ايفان اشترط على شرطا واحدا ، أن أمثل فى السنوات الباقية من حياتى كهاوية فقط !.. وقد ترددت برهة فى القبول ، فقد كنت أملك كل شىء ، عدا الهدوء وراحة البال . وكنت أنت قد تزوجت من تلك الحمقاء الصغيرة « أنجيل » التى لا تملك مالا ، ولا جمالا ، ولا حسبا ونسبا .. وأنجبت منك أطفالا لم « أستلطفهم » قط ، وأعترف أننى لا أجيد فن أن أكون جدة !

وكنت أحبك - وما زلت أحبك - وكنت أعلم اننى لو تزوجت من ذلك الرجل لاستطعت أيضا أن أوفر لك كل شىء ، ورغم ذلك لم أتردد الا لحظة فقط ، ثم غلبنى اخلاصى لفنى ، فلما أبى الرجل أن يغادر روسيا ويتبعنى افترقت عنه غير آسفة . وقد علمت فيما بعد أنه قتل بأيدى البلاشفة !

✻

◆ **وعند** عودتى الى باريس التقيت « بالرابع » - جاستون دى برو - وكان مؤلفا مسرحيا فى مستهل الثلاثين ، لم يتزوج بعد . وقد قدم لى رواية مسرحية قدرت اننى أستطيع أن أجعل منها شيئا ممتازا . وقد أخرجت منها فعلا درة رائعة ..

وصارت صلتنا صلة سعيدة يسودها الرخاء ، واستمرت ثمانية أعوام كانت بمثابة « صيف » حياتى . وقد صار « جاستون » عشيقى لمجرد الزهو - كما هو مأثور عن الرجل الفرنسى - لكن هذه الصفة كانت أضعف العوامل فى صلتنا

المشتركة ، أما العامل الغالب فيها فكان ولعه بفنى الى درجة تقرب من العبادة ، وقد أعاننى بفنه هو الآخر معاونة لها وزنها ٠ ورغم انى لم أشعر نحوه يوما برغبة أو حنين فأغلب ظنى انه لم يلحظ افتقار صلتنا الى هاتين العاطفتين ، ولا تنس أننى ـ قبل كل شيء ـ ممثلة !

وفى نهاية المدة قدم لى رواية جديدة لاقرأها ٠ فلما فعلت أرسلت فى طلبه وقلت له : « جاستون ، أعتقد أن فى الرواية خطأ لعلك لم تنتبه اليه ٠ ان فيها دور فتاة صغيرة يطغى على دورى أنا ، ويكاد يجعلها هى البطلة ٠٠ فأرجو أن توضح لى هذا التصرف الشاذ ! »

وكنت أتكلم بلهجة لطيفة ، لكنه لم يحر جوابا ٠٠ بدا كأنه لا يملك الايضاح ، وأدركت أن الايضاح الوحيد هو أنه يهوى الممثلة الشابة التى تمثل الدور الآخر !٠٠ وتستطيع أن تتصور ما حدث على الاثر ، فقد مزقت الرواية أمام عينيه شر ممزق ، بل وبصقت عليها !

❖

وفى اليوم التـــالى وقع لى ذلك الحادث الخطير الذى كان يحتمل أن يضع حدا لحياتي الفنية : قالوا لى أننى انتهيت ، وكنت أعلم اننى لم أعد شابة !

وكان جاستون آخر عشاقى ، فلم أتخذ آخر بعده ، وانما رقدت شهورا أجتر آلامي ، ولا أرى أحدا ٠٠ وذات صباح هبط على وحى قال لى : اننى لا أستطيع أن أبقى امرأة بعد الآن ، فانه من المستحيل أن أظهر على خشبة المسرح فى دور امرأة عجوز ، مثل تلك الممثلة الانجليزية التى حدثتك عنها ، واذن فلأواجه العالم من جديد ٠٠ فى دور رجل !

وأنت تعلم ما تلا ذلك ٠ فى البداية رفضتنى فرنسا ، ولكن بعد أن قبلتنى انجلترا وأمريكا ـ والانجلو سكسون هم دائما

أقل ذكاء ولكن أكثر وفاء ـ عادت فرنسا فرحبت بى فى دور الرجل !

وجعلت أدوارى الجديدةشغل حياتى الشاغل ٠٠ وكافحت وأنا على حافة القبر فى سبيل المال ، وهأنذا أهبط الى مثواى وزمامه بين أصابعي ، وبذلك تستطيع أنت وأنجيل وأطفالكما أن تأمنوا غائلة الفقر ، وربما أن تفخر بأمك ٠٠ فان المهمة لم تكن سهلة ، لا سيما بعد أن عدت من مرضى فوجدت الدنيا قد تغيرت ، حدث لها شيء لم يكن لها به عهـــد ، تبخرت روح « الرومانتيكية » والمثابرة القديمة وظهرت في الجو روح مادية قاسية أضعفت من سلطة الفرد ، اما لان الآلة قد سيطرت على الانسان ، أو لانه لم يفهمها بعد !

❊

ثم شبت الحرب ، ورأينا أهوال القنابل والحرب الميكانيكية ٠٠ فلما عدت الى أمريكا بعد ذلك قوبلت بشيء من التجاهل ٠٠ وكانت احدى سيدات المجتمع الرفيع قد سارت فى ركابى فى الزيارة السابقة ، قبل عشر سنوات ، وجعلت نفسها فى مرتبة التابعة التى تكاد تجلس عند موطىء قدمى ٠٠ فلما جئت فى هذه المرة انتظرت اسبوعا كاملا قبل أن تزورنى ، وأرسلت لى قبل حضورها باقة أزهار من الدرجة الثانية ، رغم علمها بشغفى بأزهار « الاوركيد » ، فلما حضرت تركتها تنتظرنى عشرين دقيقة ، ثم دخلت عليهـا حيث تجلس مع باقة أزهارها وقلت مشيرة اليها : « أما زالت هذه « الخضروات » فى المكان؟ اعذرينى يا سيدتى فانها حتى وهى مزدهرة وقت وصولها لم تعجبنى !» ثم تناولت الباقة فى يدى وفتحت النافذة وألقيت بها الى الشارع!

وعندئذ بدأت المرأة تعتذر لى عن تأخرها فى زيارتى ، وكانت لهجتها مرتبكة وألفاظها مضطربة ٠ وقالت انها كانت مشغولة للغاية بصفتها عضوة فى لجنة استقبال الماريشال جوفر ، وبدا

أنها مزهوة بهذا « الشرف » ٠٠ فقاطعتها وأنا أقف على قدمى كى أنهى الزيارة : « سيدتى ، هلا تكرمت على بايضاح بسيط : من يكون هذا المسيو « جوفر » الذى تتحدثين عنه ؟ »

وفى اليوم التالى أرسلت لى باقة من أزهار « الاوركيد » !

❖

◆ **ونجحت** نجاحا باهرا فى أدوار الرجال ، ماديا وأدبيا ، وان لم يبلغ نجاحى مرتبة انتصاراتى القديمة الجنونية ٠٠ ولكن هل بقى فى عالمكم الجديد يا ابنى مكان لمثل ذلك المجد الهائل ، حتى بالنسبة لفنانة شابة وجميلة ؟٠٠ وأكاد أقول : « هل يوجد الآن فى دنياكم فنانون كالقدامى ؟ » لولا أنى أذكر « نيجينسكى » الذى لو لم تصبه الحرب بالجنون لظل يخلب الانظار برقصه حتى الآن !

لم يبق لى ما أقوله لك يا ولدى ، لكنك حين رأيتك آخر مرة وجهت الى سؤالا غريبا ، قلت لى : « أمى ، هل وجدت الدنيا تستحق أن نحياها ؟ » ٠٠٠ وقد نسيت بماذا أجبتك يومئذ ، ولعله لم يكن جوابا صادقا ، فاننى لم أكن مستعدة لمصارحتك بالحقائق كلها ، فضلا عن أن الجواب الذى يأتى عفو اللحظة لا يكون صادقا فى العادة !٠٠ لكنى الآن سأحاول أن أصارحك بالحقيقة :

لست أمارى فى اننى أحببت الحياة ، وانتظرت منها الكثير ، ووجدت منها أكثر ٠٠ كنت غنية ، ومشهورة ، وجميلة ٠٠ لكننى ذقت الفقر ، واليأس ، وأخيرا القبح والشيخوخة !٠٠ وفى وسعى أن أقول لك مخلصة اننى عرفت البهجة الخالصة والفرح الغامر ، أو بعبارة أخرى عرفت السعادة « الحادة » التى تستحق كل ما عانيته من شقاء ٠٠ ثلاث مرات فى حياتى :

◆ **المرة الاولى** حين كنت ما أزال يافعة ، وأحضروك « أنت » لى ، مدثرا فى شال أبيض يخص أمى ، أستطيع أن أذكر الآن أطرافه الحريرية الطويلة ٠ وكنت مولودا نحيلا ضئيلا ، عيناك

خليط من عيون آلهة الرومان ومن عينى أنا !٠٠ أما أنا فكنت راقدة محمومة مضناة فى تلك الغرفة الصغيرة المتواضعة٠٠ وسألت الذين أحضروك : « أهو حى ؟ » فأجابتنى أمي : « ابنك حى ! » ٠٠ وعندئذ نسيت ألمى وضعفى وهتفت ضارعة : « اعطونى ابنى» ٠٠ ووجدت الدنيا بين ذراعى !

◆**والمرة الثانية** التى ذقت فيها السعادة المصفاة كانت بعد الاولى بسنوات ٠٠ كنت أمثل على أحد مسارح لندن ، ورأيت فى الصف الاول أمامى تينك الممثلتين اللتين حدثتك عنهما : الايطالية والانجليزية، جنبا الى جنب ، وقد جاءتا لتشهدا تمثيلى ٠ وكنت أمثل دورى فى رواية راسين المشهورة « فيدر » ٠٠ فرأيتهما تصيحان بأعلى صوتيهما وقد تماسكت أيديهما ، بينما فاضت دموع الفرح والاعجاب على وجناتهما ٠٠ وحين انتهى الفصل جاءتا الى وعانقتانى ، فأحسست اننى سعيدة للغاية !

والآن ـ حتى الآن ، فى نهاية حياتى ، بعد أن انتهى كل شىء ، ومات جميع عشاقى ، وغدوت أوقن اننى لن أرى رجلا يرتجف لمجرد اننى أبتسم له! ـ أدركتنى السعادة **للمرة الثالثة،** مثل الوردة الاخيرة فى حديقة الخريف ٠٠ انها ليست أعمق ألوان السعادة التى ذقتها ، لكنها أثمنها ٠ كنت أمثل الدور العظيم ، أعظم دور أتيح لممثل ـ وانه لمن الغريب حقا أن يكون شكسبير انجليزيا ! ـ وأعنى به دور هملت ٠٠ **وللمرة الاولى لم أعبأ برأى النظارة ، فقد حصلت على فرحة حياتى ومكافأة جهادى الطويل ، أدركت معانى الكلمات التى أتفوه بها ٠٠ ورغم شيخوختى وذبول جمالى وتلف صوتى الذهبى القديم ، عرفت اننى وجدت فى شخصية هملت ما كنت أبحث عنه** ٠٠ بحيث أستطيع أن أقول لك يا ولدى المحبوب ـ بغير مرارة أو خيبة أمل ـ ما قلته لابيك ليلة غادرت بيتى ، الى الابد : « اذن ٠٠ فقد انتهى كل شىء ! »

عندما يرتفع الستار ..



روائع المسرح العالمى
(التمثيلى .. والغنائى)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية من (كتابى) المسرحيات العالمية الآتية على التوالى :

خطايا الحب : لاوسكار وايلد
الحب الآثم : تولستوى
نزاهة الحكم : جوجول
سلاح المرأة : اريستوفان
فولبون : بن جونسون
جيوكندا : دانونزيو
كلام الناس : جوزيه اشيجاراى
مدرسة الفضائح : شيريدان
سيرانو دى برجراك : روستان
لعبة الحب والموت : رومان رولان
مروحة الليدى وندرمير : اوسكار وايلد
فاوست : جيته
اوديب الملك : سوفوكل
فى سبيل الحب : جون درايدن
وليم تل : شيللر

واليوم اقدم لك فيما يلى هذه المسرحية العصرية التى برع أديب روسيا الحديثة «مكسيم جوركى» فى تضمينها صورة حية لاسرة روسية تتشابك مصالح أفرادها تشابكا عجيبا

.. وفى الاعداد القادمة أقدم لك باذن الله هذه الروائع العالمية :

الملك يلهو : فيكتور هوجو
قافلة الزمان : نويل كوارد
البخيل : موليير



الأم

قصة تمثيلية كبرى
لأديب روسيا الحديثة
مكسيم جوركى

شخصيات الرواية

دنيا : فتاة تمت بنسب بعيد لاسرة « زيليسنوف » Dunya

ليبا : خادم فى دار أسرة « زيليسنوف » Lipa

الاب (زخار زيليسنوف) : رب الاسرة ، وهو مريض يحتضر

Zakhar Zheleznov

الام (فاسا بتروفنا زيليسنوفا) : زوجة زخار زيليسنوف

Vassa Zakhar Zheleznova

ميخائيل فاسيلييف : مدير أعمال زيليسنوف

Mikhail Vassilyev

سميون زيليسنوف : ابن فاسا الاكبر Semyon Zheleznov

ناتاليا : زوجة سميون زيليسنوف Natalya

بافل زيليسنوف : ابن فاسا الاصغر Pavel Zheleznov

ليودميلا (ليودا) : زوجة بافل وابنة ميخائيل Lijudmila

العم : **بروخور زيليسنوف** : أخ زوج فاسا

Prokhor Zheleznov

آنا : ابنة فاسا

Anna

هذه المسرحية ..

« كل الامهات مذنبات .. وكلهن شهيدات ايضا » !

بهذه العبارة التى ساقها «جوركى» على لسان «فاسا» استطاع الكاتب الروسى الخالد ان يجمل وصف الدور الذى تلعبه «الام» ـ أى ام ـ فى حياة الاسرة.. فى حياة الزوج، والابناء، بل وكل من يتصل بالاسرة .. حتى الخدم !

وبهذه العبارة ايضا ، وصف «جوركى» طبيعة دور الام فى ايجاز بليغ ، بديع ، يدخل فى روائع «السهل الممتنع» .. فالام فى حرصها على مصالح ابنائها قد تتقمص شخصية الطاغية ، فهى تجمع السلطات فى يديها ، وهى التى تمسك بأعنة افراد الاسرة تحركهم كقطع الشطرنج ، كما تشاء هى وكما تشاء ظروف اللعب التى تبدو لعينيها على قطعة الشطرنج العظمى ـ على مسرح الحياة ! ـ وهى قد تستسهل ارتكاب الذنوب ، بل قد تجرؤ على اقتراف الكبائر فى سبيل الوصول الى أهدافها .. مصالح أولادها . ثم تستبد بها شهوة القيادة والسلطان والتحكم ، فتقف حائلا دون ان يستمتع ابناؤها بهذه المصالح التى قضت العمر تكافح من أجل تحقيقها !

ولكن .. لندع شخصيات «جوركى» تروى القصة :

- ١ -

◆ **ترفع** الستار فى صباح أحد أيام الشتاء ، عن غرفة رحبة فى دار « زيليسنوف » اتخذتها الام « فاســا » مخدعا ومكتبا خاصا لتصريف الاعمال .. وفى الطرف الاقصى باب واسع تظهر خلاله غرفة المائدة ..

وترى «دنيا» ـ حين ترفع الستار ـ منهمكة فى اعداد المائدة، بينما تقبل « ليبا » تحمل معدات الشاى .. ومن الحوار الموجز بين الفتاتين ، نفهم أن « ليودميلا » ـ زوجة ابن الاسرة «بافل»ـ قضت الليلة خارج الدار !.. وتنتقل « ليبا » الى غرفة « فاسا » فتسوى هذه من وضع منظارها على عينيها بينما تشرع الخادم تروى لها الاخبار ، بادئة « بالنشرة الصحية » عن حالة رب البيت الذى يحتضر :

– ان حال « زخار » ساءت حوالى مطلع النهار ·· و « بافل » لم يأو الى فراشه بعد ، لان « ليودميلا ميخايلوفنا » لم تنم فى الدار !

– حذار يا « ليبا » ·· انك تزجين الانباء السيئة فى تشف ·· اذهبى وادعيهم جميعا لتناول الشاى ·· بل انتظرى ·· اذا كانت « ليودميلا » نائمة فلا توقظيها ·· وهى قد قضت الليل فى دار أبيها ·· أفهمت ما أرمى اليه ؟

◆ **ويشى** حديث « فاسا » مع الخادم ومع « دنيا » بأنهـــا تستخدم الفتاتين فى تجسس أنبـــاء أفراد الاسرة واستراق السمع لاحاديثهم ! ·· ولا يلبث أن يدخل « ميخائيل » غرفة « فاسا » فتصيح فيه :

– أين ابنتك ؟·· يا لك من أب !

– ليس بوسعى أن أفعل شيئا ·· فهذا فوق مقدورى

– لقد دمرنا حياة الولد ··

– وحياتها هى الاخرى ·· انها ليست ملومة ، فهى لم تتزوج من « بافل » بمحض رغبتها ··

– دعنا من هذا ·· أليس بوسع « زخار » أن يوقع الوثيقة؟

واذ يجيبها بالنفى تسأله : « وهل وافق القس ؟»

– أجل ·· فى مقابل خمسمائة !

– انها فرصة متاحة له ·· ولسوف نقرر اذا ما تم الامر ما ينبغى عمله للاولاد ··

◆ **وهكذا** ، كانت « الام » تدبر الخطة لاعداد وصية تبقى الامور فى يديها ، وتحتفظ لها بالسيطرة على الاسرة والثروة عند وفاة زوجها زخار !

ويأتى « بافل » فيسأل حماه عن ابنته ·· وتبادر « فاسا » بصرف « ميخائيل » من الحجرة ، بينما يندفع ابنها نحوها قائلا :

ـ اننى أحس بالعار يا أمى الحبيبة ٠٠ لا أستطيع أن أحتمل ٠٠ ساعدينى ٠٠

ـ ألم أقل لك انها لا تلائمك ؟٠٠ كان يجب أن تتزوج من فتاة هادئة ٠٠

ـ تقصدين مشوهة ، لاننى مشوه ٠٠ يا الهى !٠٠ زوجة « بافل زيليسنوف » مفسودة !٠٠ ألا يدمى هذا قلبك ؟٠٠ ألا يشعرك بالعار ؟٠٠ ألا اعطينى بعض المال ، فسأنزح الى المدينة ٠٠ لم أعد أطيق المكث هنا ٠٠

◆ **ويتهالك** على الاريكة باكيا ، بينما تقبل « ناتاليا » ـ زوجة الاخ الاكبر سميون ـ فتقبل يد حماتها ، ثم تفطن الى « بافل » فتهتف :

ـ ماذا جرى يا بافل ؟٠٠ احضرى كوب ماء يا دنيا !

وتبدى الام خجلها لمسلك ابنها ، فيثيره هذا ٠٠ ويهيب فى ثورة بزوجة أخيه أن تنأى عنه :

ـ لا تمسينى ، فانى أثير الاشمئزاز فى نفسك ٠٠ اننى مشوه ٠٠ وزوجتى ٠٠ فاجرة !

ويعود « ميخائيل » فيخلو الى « فاسا » ليقول : « لقد ذهبت ليودميلا مع « العم » ٠٠ الى المزرعة ! » فتستند « فاسا » الى الحائط حتى لا تترنح وتقول :« مع بروخور ؟٠٠ لقد أزعجتنى، اذ ظننتهما فرا معا ٠٠ هل علم بافل ؟ »

ـ لن يلبث أن يعلم ٠٠ ان السقم والخوف يتملكاننى ٠٠ لقد هدمت حياة ابنتى ، وها هو ذا العمل الذى قضيت فيه حياتى يوشك أن ينهار ٠٠

ـ لا تدع اليأس يتملكك ٠٠ ألا ترانى أصمد للاحداث ؟٠٠ اذن فبروخور عازم على ٠٠

ـ انه عدو للجميع !٠٠ يقولون انه رجل رحيم ذو ضمير ٠٠ اننى أعرف هذه الاشياء ٠٠ الرحمة والضمير ٠٠ انهما كالرمال

اذا تسربت الى الآلة أفسدتها ٠٠ انهما رياء وغش ٠٠ منذا الذى يريد الرحمة ؟٠٠ اعطنى حقى وكفى ٠٠ هذا منطق اليوم ، أما الكلمات الناعمة والاساليب اللينة فابقها لنفسك ٠٠ **ان المرء لا يلجأ الى لعبة « الضمير » الا حين تعوزه الحيلة لان يجتذب اهتمام الناس ٠٠ واذ ذاك يتجمع حوله اناس لا يحسنون غير البكاء الذى تستثيره ألاعيبه ٠٠ ومن ثم لا يمضى العمل كما ينبغى** ٠٠ لا ٠٠ انه رجل مؤذ ٠٠ ضار٠٠ ولكن ، يحسن بك أن تذهبى فترى زوجك ٠٠

– لم تصل برقية من « آنا » بعد ٠٠

– لم تعولين عليها كل هذا التعويل ؟

– لا تتكلم ٠٠ انك لا تعرفها ٠٠

◆ **وتخرج** « فاسا » و « ميخائيل » فى اثرها ، فلا تلبث أن تفد « دنيا » و « ليبا » التى تقول : « لقد كانت ليودميلا مع عمها خارج الدار طيلة الليل ٠٠ أية أحداث هذه التى تجرى ! » ٠٠ ويقطع عليها الاسترسال مقدم « سميون » الذى لا يكاد يعلم بأمر زوجة أخيه وعمه حتى يهتف :

– يا لهذا العم الشيطان المجعد الشعر ٠٠ لقد نال ما كان يبغى ٠٠ ترى كيف يكون شعور بافل ؟

ويدخل اذ ذاك « بروخور » حانقا ، لان « بافل » أطلق قطة فى بيت الحمام الذى يعنى بتربيته !٠٠ ويبتسم « سميون » فى خبث متسائلا :

– أية ضغينة يكنها لك « بافل » ؟

– آه ، قف عند حدك !٠٠ انه أحمق ٠٠ وخليق بتلك المرأة أن تعمل على المسرح ٠٠ انها ليست بالزوجة التى تلائمه ٠٠

◆ **وتقبل** « ليودميلا » فى ثوب أنيق ، فتنحنى « دنيا » بتحية صامتة ، ويصك « سميون » كعبيه مبتسما ، بينما يفتل « بروخور » شاربيه مزمجرا ٠٠ وتلتفت الى أخ زوجها قائلة :

ـ فيم اغتباطك هذا يا « سميون » ؟٠٠ خليق بك أن تروضيه على حسن السلوك يا دنيا ٠٠ أترين كيف يضحك وأبوه يحتضر!

فيجيب سميون : « لقد انقضى على أبى فى مرضه سبعة شهور ! » ٠٠ بينما يعلق « بروخور » قائلا : « عجبا لرجل عرف بسرعة البت فى الامور مثله ، ولا يستطيع أن يحسم أمره ازاء الموت ٠٠ »

وتشهق « دنيا » استنكارا ، ثم لا تلبث أن تغادر الغرفة ، بينما تقبل « فاسا » فتصرف « سميون » عن الحجرة ، وتتفادى قبلة من « ليودميلا » ، ثم تقول لبروخور فى لهجة مسالمة :

ـ انك رجل نابه ، غير خبيث الفكر ٠٠ لذلك يجب أن تفهم أن أعمالك تجلب العار على الاسرة كلها ، وعلى شركتنا العريقة٠٠

ـ لقد سمعت هذه الخطب من أخى « زخار » أكثر من مرة ، وكنت أقول له ان فرصة تعليمى قد فاتت ٠٠

ـ أو ليس لديك أى اعتبار للشابة ٠٠ بل انها فتاة فى الواقع ٠٠

ـ معذرة ، فاننى أحسن منك فهما للشابات والفتيات !٠٠ كما أستطيع أن أسبر غور الكثيرات ممن تقدمت بهن العمر !

ـ ان بافل ابن أخيك ٠٠

ـ هلا تكرمت اذن فأنبأته اننى سأصلم أذنيه اذا أطلق القطط على حمامى ٠٠

ـ اذن ٠٠ فأنت عدو للاسرة ؟

ـ دعى الاسرة جانبا ٠٠ الاسرة !٠٠ ان أخى العليل أوشك تحت توجيهاتك الرحيمة أن يقضى على مالى ٠٠ الاسرة ؟٠٠ لقد ابتلعتم ثلاثين ألفا من نقودى ٠٠ كفى !

ـ اذن ، فأنت تبغى الصراع ٠٠ مع أبناء أخيك ؟

ـ بل هناك القانون يا « فاسا بتروفنا » ٠٠ فاذا ما غادر « زخار » قنينة الدموع ـ أعنى دنيانا هذه ـ فسنقتسم الثروة

فى سلام ، دون شيء من ألاعيبك الماكرة ٠٠ والآن ، ان قلبى يتعبنى ٠٠

ويغادر الغرفة ويده على قلبه ، و « فاسا » متحفزة كأنما تريد أن تنقض عليه ٠٠ ولا تلبث أن تفد « ناتاليا » ـ زوجة الابن الاكبر سميون ـ فتسألها الام عن « بافل » ٠٠ وتجيبها الشابة:

ـ لقد هدأ قليلا ٠٠ اننى أشعر بالاسى من أجله ٠٠

ـ لم يأس أحد قط لى ٠٠ عنـــدما قرر « زخار » أن يعلن افلاسه ، كان قد مضى على « بافل » فى أحشائى ستة شهور ٠٠ وكان من الممكن أن تنتهى المغامرة الى السجن ، اذ كنا فى ذلك الوقت قد استبدلنا نقودا سرا برهائن من الاشياء الثمينـــة اكتظت بها حقائبنا ، وكان علينا أن نخفى كل شيء ، فرغبت الى « زخار » أن يتريث ريثما أتم شهور الحمل ، ولكنه أرغى وأزبد وأرهبنى ٠٠ وقضيت شهرين آخرين وأنا أغذو حملى بالخوف والجزع مما كان يرتقبنا ٠٠

ـ لعل هذا هو السر فى انه ولد مشلولا مشوها ٠٠؟

ـ بل حدث هذا حين بلغ الخامسة ٠٠

وتشفع « ناتاليا » لديها فى رجل فصلته عن عمله ، فتقول لها:

« من لا يحسن عمله يجب أن يطرد ! »

ـ انه يقول ان كل عمل أو تجارة خطيئة ٠٠

ـ انه أحمق !٠٠ **وماذا تريدين من الناس أن يقولوا ليبرروا كسلهم ؟٠٠ ان الناس يعبثون بعقولهم ليخدعوا أنفسهم ، ولكن « زخار » لم يفعل هذا ، ولذا ارتفع بنفسه من مجرد فلاح بسيط الى ما صار اليه ٠٠**

ـ ولكنك شكوت منه ٠٠

ـ انما اشتكت منه المرأة التى بين جوانحى ، فقد كان رجلا مشبوب النزوات ، وانه ليموت الآن من نزواته ٠٠ أما فيما عدا ذلك ، فانه يستحق ثقله ذهبا ٠٠

❊

◆ **وتخلو** « فاسا » الى الخادم « ليبا » فتعلم منهـــا أن « بروخور » استقبل فى أمسه محاميا قدم من المدينة وحرص على أن ينفرد به بعيدا عن متناول الاسماع ٠٠ وتغضب « فاسا » لان خادمها عجزت عن استراق السمع كما أوصتها ، فتتوعدها ٠٠ وتصيح الخادم فى قنوط :

ـ الا اطلقينى ارحل .. لسوف آوى الى دير .. إننى لا استطيع البقاء .. اننى خائفة ..

ـ جففى دمعك ، فلو تركتك ترحلين لما وسعك الا ان تتردى فى الهلاك .. ولكنك لن تجدينى شحيحة اذا انت راعيت فضلى !

وبينما تذهب «ليبا» لاستدعاء «ميخائيل» ، يقبـــل «بافل» على امه شاكيا : «لست ادرى ماذا افعل بنفسى .. ان قلبى اثقل من الرصاص !» .. فتجيبه امه : «اذا لم تستطع ان تحكم زمام المرأة ، فارض بنصيبك .. الى امد»

ـ اى امد ؟.. انك قاسية يا اماه ٠٠ انك لا تحجمين عن ان تستعملى ابنك كفأس تحفرين بها الارض ابتغاء مزيد من المال !

ـ لم لا تغدو راهبا يا بافل ؟

ويجزع الشاب ، فيسألها مبهوتا : «اجادة انت ؟ .. آه ، لا .. انك لن تفرضى هذا على .. لا ! »

ـ الى من تتكلم بهذه اللهجة ؟.. اخرج !

فيغادر الغرفة قائلا : «لست ارهبك او اخافك» .. بينما تتمتم هى لنفسها : «فيم كان كدحى وعنائى كل هذه السنين .. ولمن ؟ »

ويصل «ميخائيل» ، فتروى له كيف اخفقت «ليبا» فى

تجسس ما دار بين «بروخور» والمحامى ، وتعقب قائلة : «يبدو انها نسيت معنى الخوف ..»

ـ مستحيل .. فان ما اقدمت عليه من قتل طفلها ليس بالامر الهين ..

ـ وكذلك بالنسبة لنا .. لا تنس ان الطفل كان ثمرة اعتداء «سميون» عليها !

ـ انها لن تستطيع اثبات ذلك ، فما كان الطفل يحمل خاتم شركتنا !

ـ تحدث اليها ، وكن حازما .. هددها اولا ، ثم اظهر لها شيئا من الكرم .. على اننى تحدثت الى «بروخور» ، فقال انه سيهدمنا ..

ـ هذه مسألة تحتاج لاجراءات جدية .. ان لدى أملا واحدا .. فهو مصاب بضعف القلب ، وضعاف القلب معرضون للموت فجأة .. وهو يسرف فى تعاطى الادوية شيئا فشيئا ، **وقد اخبرنى «ياكوف» مساعد الطبيب ان هذه الادوية التى يتعاطاها نوعان : احدهما للقلب .. والاخر ـ وارجو المعذرة ـ يتيح له قوة تمكنه من مواصلة علاقاته بالنساء .. والنوعان متعارضان ، لا ينبغى الاكثار من تعاطيهما معا .. فاذا زادت الجرعة .. ؟**

وتقول «الام» فى تشجيع يستتر وراء لهجة اللوم :

ـ ويحك !.. كأنك تبغى أن تسممه .. تمالك نفسك .. وكن اكثر حذرا فى حديثك ..

ـ انك تخيفيننى .. بل وتؤذين شعورى .. لا تنسى اننى خدمتك طول عمرى باخلاص .. بل وضحيت بابنتى ، وحيدتى ..

ـ على رسلك يا صاحبى .. ولا تلمنى من اجل «ليودا» فاننى احبها ، وقد عارضت فى زواجها ..

ـ ان هذا ذنبه .. وزر ذلك العم اللئيم .. لقد كان

يخشى ان يتخذها عشيقة وهى عذراء ، فسعى لزواجها من ابن اخيه !

ـ اهدأ .. وانصرف الان .. ولا تنس مسألة الوصية !

*

◆ **وتظل** ترقبه وهو منصرف ، ثم تجلس الى مكتبها تراجع بعض الاوراق ، متمتمة لنفسها فى صوت خفيض .. وتقبل «آنا» فى تلك الاثناء فى حذر ، وهى ترقب امها بشىء من السخرية التى لا تلبث ان تنقلب الى حنان واسى ..

ويبدو اللقاء حارا بين الام وابنتها الكبرى ، التى كانت تعيش الى جوارها الى ان احبت ضابطا فتزوجت منه رغم معارضة «فاسا» ، التى لم تشأ ان تفلت الفرصة ، فساومتها قبل ان تنزح مع زوجها على نصيبها من ثروة ابيها ، لتصونها لولديها الذكرين !

وتتخلص الام سراعا من فورة العاطفة ، وتتحول تتحدث فى جد ولهجة عملية :

ـ اننى فى ضيق يا آنا ، فان عمك يريد ان يسحب ماله من الشركة ، وكأنما نسى ان هذا المال انما هو ثمرة كدح «زخار» واياى ، فى حين لم يكن له هو من هم سوى الجرى وراء النساء! ثم ان «سميون» تحت سلطان زوجته ، وهى فتاة غبية لا تكف عن حثه على ان ينسحب بدوره من الشركة .. و«بافل» متعوس ، فلعلك عرفت انه تزوج من «ليودميلا» ، وهناك ما يدعو الى الارتياب فى انها تخدعه مع رجال آخرين .. اننى لا اكاد افقه شيئا من الاحداث التى تدور حولى ، ولهذا دعوتك .. فان الشركة على شفا الانهيار .. **ان ثلاثين عاما من الدأب توشك ان تضيع فى الهواء .. ولدينا ورثة عديدون ، ولكن احدا منهم لا يحاول ان يعمل ويكافح .. ترى لم كنت وابوك نكد ، ولمن ؟.. لقد قضينا السنين نبنى ، وها هو ذا البناء**

يوشك ان يتهدم .. فهلا تحدثت مع اخويك فى ذلك ؟ .. انهما ـ وهما ولداى ـ يأبيان ان يصدقانى .. بل يظنان اننى أريد ان استولى على كل شىء فى قبضتى .. ولكنهما لن يترددا فى ان يصدقاك ، فليس لك من مصلحة ، بعد ان اعطاك ابوك نصيبك يوم طردك ..

ـ نصيبى ؟.. لقد القى لى عشرة آلاف .. فهل هذا كل مالى من حق ؟

ـ لا تنسى ان ثمة ايصالا تعترفين فيه بانك تسلمت نصيبك كاملا ..

ـ اعطنيه يا اماه .. هدية منك

ـ مقابل اية خدمات يا سيدتى العزيزة ؟

وهكذا تتساوم الام وابنتها .. فى جشع .. وتسأل الاولى الثانية عن احوالها ، وعن زوجها ، حتى اذا سألتها عن اولادها فقالت انهم بخير وهناء ، ابتسمت الام فى خبث قائلة : «اذكر ان ابنك الاول كان معلولا .. اما الذين تبعوه فأرى انهم اصحاء .. رغم ان زوجك سقيم !»

وتتضرج وجنتا الابنة وتهم الام بفتح الباب ، فتفاجىء «بافل» فى الخارج يسترق السمع .. ويقول مرتبكا :

ـ أ أنا من افراد الاسرة ؟.. لقد قيل لى ان سيدة اقبلت .. وما حدست قط انها «آنا» .. !

وتقبل اخته تحييه مبتسمة فيقول :

ـ لقد ولجت بقدميك دارا للمجانين .. ان الام تريد ان تستولى على كل شىء ، ولكن الامور لن تسير على هذا النحو حين يموت الاب .. فنحن لم نعد أطفالا .. وانا الآن فى الرابعة والعشرين بينما يكبرنى «سميون» بثلاث سنوات

ـ وكيف زوجتاكما ؟

ـ زوجته بدينة ، وماكرة .. ولكننى اراك ازددت جمالا

.. واناقة .. اما هنا ، فالكل يرتدون ثيابا سوداء تتخللها خطوط بيضاء ، كأننا فى مصح !.. ولا يجد اى شخص ما يعمله .. فاذا شرع احدنا فى عمل ناجح ، اوسعته الام لوما وتقريعا .. ها هو ذا الشيطان مقبل !

ويقبل «بروخور» فيتأمل ابنة اخيه فى رضى ، وهو يقول : « ما شاء الله ! ٠٠ يالك من سيدة أنيقة ! مرحى ! ٠٠ هات قبلة ! ٠٠ من الذى لا تفتنه هاتان العينان ؟ »

ويقبل «سميون» فيرحب بأخته ويقدم اليها زوجته «ناتاليا» .. ولا تلبث ان تأتى «ليودميلا» فيكون بينها وبين « آنا » لقاء حافل ، فقد كانتا صديقتين قبل زواجهما ٠٠

- ٢ -

◆ **وترتفع** ستار الفصل الثانى عن غرفة المائدة ، وظلام المساء يزحف ٠٠ « وليودميلا » واقفة أمام المدفأة ، بينما « آنا » تذرع الحجرة وبين أصابعها سيجارة ٠٠

وتقول « ليودميلا » : « اننى لا أفهم شيئا مما يجرى هنا٠٠ وقد استحلت فى العامين الاخيرين الى غيبة ، ممرورة .. لقد كان زواجى من « بافل » على الرغم منى ٠٠ كان الوقت غير عادى ، انتشرت فيه القلاقل والاضرابات فى كل مكان ٠٠ وكنت قد صادفت قبل ذلك فتى ٠٠ لم يكن مليحا ، ولكنه كان بالغ الاناقة ٠٠ ولست أدرى أين هو الآن ، فقد اختفى ٠٠ »

ـ وهل يعلم «بافل» بأمرك معه ؟

ـ لا احد يعلم .. سوى العم .. انه الذى علمنى كيف اتغلب على الموقف ٠٠ **انه رجل أعمال ٠٠ يوليك لطفه ، ولكنه لا يلبث أن يطالبك بالثمن ٠٠ والفوائد !** على اننى لا أحس بأحد يفهمنى فى هذه الدار ، غير أمك ٠٠ وهذا غريب ، فأنا لا أكاد أتحدث اليها ، ولا هي تسألني عن شيء ، اللهم الا حين تحاسبني من

أجل « بافل » فى بعض الاحيان ٠٠ ولكننى أدرك فى قرارة نفسى انها الوحيدة التى تحبنى وتأسى لى ٠٠ ان كلا منا يدرك ما يجول بخاطر الآخر ٠٠ انها كريمة ٠٠ حنون ٠٠

وهنا تغمغم «آنا» وكأنها تشك فيما تعنى محدثتها : «كريمة؟ ٠٠ حنون ؟ »

ويقطع عليهما « بافل » حبل الحديث حين يشعل الشموع ، واذ يأبى أن يطفئها استجابة لسؤال « ليودميلا » تعيره هذه بعجزه وقبحه ، ثم تغادر الغرفة وهى تصيح : « اننى أمقت رؤيتك ٠٠ »

وتسأله أخته : « وما الذى تنتويه يابافل ؟ »

ـ لا شىء٠٠اننى أتعذب٠٠وأعذبها هىالاخرى!٠٠ألا ساعدينى يا «آنا» ، أعطيك أى شىء تطلبين٠٠أعطيك مالا اذا مات أبونا٠٠ بل أعطيك كل شىء ٠٠ علميها أن تحبنى ٠٠ اننى أركع كل ليلة الى جوارها وهى نائمة ، وأظل حتى مطلع الفجر أناجيها٠٠ بينما تظل هى مستغرقة فى النعاس٠٠

وتفد «ناتاليا» تدعوه الى أمه ، ثم تبقى مع «آنا» التى تسألها: **« ألا تضجرين من العيش هنا ، وأنت شابة ٠٠ وليس ثمة متع أو مسليات ٠٠ ؟ »**

ـ بل لى زوج هنا ، وهو يبذل ما فى وسعه ليصد عنى السأم، وليحملنى على الضحك ٠٠ على ان حياتنا لن تلبث ان تتغير ، وخليق بنا أن ننزح الى المدينة ٠٠ ان الناس فى الريف يعيشون فى تطورات غريبة وقلق ٠٠ ولقد وفد علينا مرة رجل حاول أن يقنع كل واحد بأن العمل خطيئة ، فلا ينبغى أن يعمل أحد شيئا ٠٠ ولقد أزعجنى هذا القول٠٠ تصورى كيف تصبح الحياة اذا كف الجميع عن العمل !

ويأتى « بروخور » يسأل عن « فاسا » ، فتتحول اليه «آنا» تستفسر منه عن أمره ، فاذا به يشكو اليها من أن « بافل »

يحاول ببعض الحيل الخبيثة أن يورده حتفه ٠٠٠ ثم يستثير «ناتاليا» حتى يغضبها فتغادر الحجرة ٠٠ فاذا لامته «آنا» قال لها :

ـ اننى أكره الروح القاتمة المستخفية فى هذا الثوب الاسود ٠٠ تصورى اننى سمعتها مرة تحدث زوجها عن المستقبل الذى تحلم به ٠٠ انها تحلم بالثياب الانيقة الغالية ، وبعلية القوم يتقربون اليها ، ويغبطون زوجها على فوزه بها ! ٠٠ وكان «سميون» يسمع ويقهقه كالابله ٠٠ ياالله ! ٠٠ لقد سئمت الجميع ومللتهم ٠٠ وما يضطرنى الى العيش معهم سوى أن كل أموالى مربوطة الى هذا المكان بفضل تدبير « زخار » ٠٠ ولكن ، صبرا ، ما ان أسحبها حتى أفارق أقاربى المحتالين الى الابد ٠٠

ـ والى أين تذهب ؟

ـ الى موسكو ٠٠ ان لى فيها ابنا جاء ثمرة مغامرة غرامية تعسة ٠٠ ولكنه ثمرة حلوة ، قاربت النضوج ٠٠ انه يطلب العلم الآن ٠٠ وقد ماتت أمه ٠٠ انه شيطان مرح ٠٠

ـ اذن فقد عزمت على أن تنسحب من الشركة ؟

ـ بكل تأكيد ٠٠ لقد بدأت أجزع لتطور الاحوال ٠٠ كنت اذا جست خلال القرية فيما مضى أشعر بأننى سيد صاحب سطوة وسلطان ، أما اليوم فانهم رغم انحنائهم لى يطلقون من أعينهم قذى وازدراء ٠٠ ثم ان السلطات ـ وما أكثرها ـ تحيرنى وتضايقنى ٠٠ وكل شخص يحاول أن يحطم رأس الآخر ٠٠ ثم ، ما حاجتى الى الشركة ؟

◆ **ويقبل** « سميون » فيعرض « بروخور » ان يذهب فيدعو « ليودميلا » ليشتركوا أربعتهم فى لعب الورق ، وبينما يخرج العم ، تسأل « آنا » شقيقها :

ـ أتظنه حقا « يلعب فى الخفاء » مع ليودميلا ؟

ـ ها ! ٠٠ « يلعب فى الخفاء » ؟ ٠٠ هذا هو التعبير الذى

كنت أنشده ٠٠ **انه يلعب بكل ما أوتى ٠٠ لقد سمعته مرة يزجى اليها بنصيحة صعقت لها ـ ولا أدرى كيف أعبر لك عنها ـ نصيحة تعلمها كيف تتفادى «الحمل» !** ٠٠ اننى لا أجد متعة فى الحياة هنا ٠٠ وجوه مكتئبة ، وعيون مترصدة ، وأوامر قاسية، وخمر ، وشجار ٠٠ لسوف أنزح الى المدينة بمجرد موت أبى ٠٠

ـ ومن يتعهد الشركة ؟

ـ الشركة ؟ يجب تصفيتها ، فليس من ورائها ربح ٠٠ وما يتبقى منها يترك لامنا وميخائيل يتوليانه ٠٠ أما أنا فسوف أفتح متجرا للمجوهرات فى المدينة ٠٠

وتندفع « ليودميلا » الى الحجرة تهيب بآنا أن تسارع فان « بروخور » ينهال على « بافل » ضربا :

ـ لقد قال « بافل » انه لن يسمح لى بلعب الورق ، فضحكت، واذ ذاك دفعنى وراح يصخب ، فشده العم من شعره !

وتفد الام فما ان تعلم بالشجار حتى تهيب بزوجة ابنها أن تذهب فتصلح بينهما ٠٠ ثم تجلس الى جوار المدفأة، وتقول لآنا:

ـ ان هذه الحال مستمرة منذ عامين أو ثلاثة ٠٠ لكم أنا آسفة لبافل !

ـ أحقا ما سمعته عن « ليودميلا » وعلاقتها بالعم «بروخور» ؟

ـ ان « بروخور » وغد ٠٠ لقد سعى حتى عرف سر الفتاة ، مع ذلك الشاب الذى أحبته قبل زواجها ، ثم راح يستغله ٠٠ انه قذر !

ـ هل عرفت ان له ولدا من ثمار الحرام ٠٠ وانه يعتزم أن يعلن نسبه اليه ؟

ـ أهذا ما كنا نعمل من أجله ؟ ٠٠ لا ٠٠ اننا لن نسمح بهذا ٠٠

ـ و « سميون » يريد أن ينزح الى المدينة ٠٠ وكذلك «بافل»

ـ صه ! ٠٠ لسوف أجد له مكانا لائقا ٠٠

ويقبل « بروخور » و «سميون» و « ناتاليا » ، فاذا الاخيرة ثائرة ضد العم ، تتهمه بأنه الذى أثار « بافل » وجعله دائم الحقد ٠٠ أنه أفسد حياة « ليودميلا » ! ٠٠ فيصيح : « يالك من حمقاء ٠٠ كانت حياتها مفسودة من قبل أن تتزوج ! »

وتسمعه ليودميلا فتصيح : « امض٠٠ تكلم!٠٠ لقد رفعت يدك فاصفع ٠٠ ان الامر لم يعد يهمنى ٠٠ لسوف يعرفه «بافل» الآن ٠٠ ويعرفه الجميع كذلك ٠٠ يالله ! ٠٠ لكم أتمنى ان أبارح هذا المكان مهما كان الثمن ! »

وتصيح الام : « هل سمعت يا آنا ؟ ٠٠ ليس منهم من يحس بأن ثمة رابطة تربطه بأى شىء ٠٠ كل منهم يريد أن يختطف ويمضى ! »

فتقول ليودميلا : «ليس ثمة ماأختطفه ٠٠ لا أريد شيئا٠٠كل ما أبغيه هو ان تتركوا لى حياتى ٠٠ »

ويقبل « بافل » يطلب من أمه نقودا ليرحل ، فلما لا تجيبه الى طلبه يصيح :

ـ أأنت أمى ؟ ٠٠ قولى لها ياآنا أن تدعنى أذهب ٠٠

فتنصح «آنا» أمها بأن تستجيب له حتى لا يناله أذى من عمه، أو يثور فيتمخض ضعفه عن أذى للعم ٠٠ ولكن الام تطرد الجميع من الحجرة مستبقية «آنا» ٠٠ وبعد فترة يأتى «ميخائيل» ليذكر لفاسا أن زوجهافى النزع الاخير ، فتبادر الى مغادرة الحجرة ، ولا تلبث أن تقبل «ليبا» تدعو «آنا» لاسعاف عمها الذى أصيب بنوبة قلبية ٠٠ واذ تسرع « آنا » مستجيبة ، يتحول « ميخائيل » الى « ليبا » فى تساؤل فتقول :

ـ لا أستطيع أن أقدم على هذا العمل ٠٠ انه انسان !

ـ أترينها خطيئة؟٠٠ أليس من الخطيئة ان يخنق الانسان طفله؟ ٠٠ احذرى ، فان « بروخور » يعرف كل شىء عن ماضيك!

ـ وكذلك أنت ٠٠ فهل يجب أن أدس لك السم بدورك ؟



ـ احذرى لنفسك ياصديقتى، ولاتكونى عنيدة ٠٠ **اذهبى الى غرفته فلن تجدى خيرا من هذه الفرصة ٠٠ كل ما عليك أن تسكبى جرعتين كبيرتين من الزجاجتين ، وتسقيه اياهما ٠٠ هذا ليس بسم ، وانما هودواء، تتحررين بعده فتذهبين حيث تشائين ٠٠ وتذكرى دائما أن لا سبيل للتوبة الا عن طريق الخطيئة ٠٠ ستتحررين ، وستنالين مكافأةضخمة٠٠وأنت شابة ، ولا تزال سبل الحياة أمامك مفتوحة٠٠ ولن تستمرئى الحياة الا اذا ذقت مرارة الخطيئة ٠٠**

وتخرج « ليبا » مغلوبة على أمرها ٠٠ ولا تلبث «فاسا» أن تعود الى الحجرة ، فينبئها «ميخائيل» بأن « بروخور » أصيب بنوبة قلبية ٠٠ وفى اللحظة ذاتها تندفع « آنا » الى الغرفة مذعورة ، فتهمس :

ـ لقد سقت « ليبا » العم سما !

فاسا : وهل مات ؟

ميخائيل : يجب أن ندعو البوليس ٠٠ يجب ٠٠

آنا : انها تصرخ فى الغرفة ٠٠ يجب أن ندعو الطبيب ٠٠

واذ ذاك تندفع « ليبا » الى الغرفة فتصيح فيها «فاسا» :

ـ ماذا فعلت أيتها الكافرة ؟ ٠٠

ـ دعينى أرحل ٠٠ بالله دعينى !

ـ ألا تعرفين ان الناس يزجون فى السجون من أجل خطأ كهذا الذى ارتكبته ؟ ٠٠ ولكن ، لم ترتجفين يا آنا ؟ ٠٠ ماذا

جرى ؟ ٠٠ لقد أخطأت الفتاة فى اعطائه الدواء ٠٠ خطأ يحدث فى كل مكان ٠٠ ان رب الدار يحتضر ، والفوضى تسود البيت ، والفتاة مرهقة ٠٠

وتقبل « ناتاليا » تدعوهم الى اغاثة « بروخور » فقد انزلق عن فراشه وراح يتلوى على الارض ٠٠ وتنصرف معها «آنا» ، واذ ذاك تتخلى الام عن القناع الزائف الذى كانت تختفى وراءه وتقول للخادم فى غيظ : « أفيقى أيتها الشيطانة ٠٠ انه حى ! ٠٠ لعنة الله عليك ٠٠ اغربى عن وجهى ! »

فتركع على ركبتيها وتؤكد لها ان « ميخـــائيل » هو الذى أغراها ٠٠ ثم تنصرف ، واذ ذاك يحاول الرجل أن ينكر مااتهمته به ، ولكن « فاسا » تقول له :

ــ أرأيت ان صديقك مساعد الطبيب أحمق ؟ ٠٠ ان العم لم يمت ، فما الذى تنوى عمله الآن ٠٠ راقب « ليبا » أولا حتى لا تشى بشىء ٠٠

- ٣ -

◆ **وترفع** ستار الفصل الثالث عن غرفة المائدة ذاتهـــا ، و «فاسا» تجلس الى جوار المدفأة فى ثياب الحداد ــ حزنا على زوجها ــ و «آنا» تذرع الغرفة ، و «سميون» يجلس الى المائدة٠٠ ونعلم من الحوار ان العم قد نجا من الموت ، وان الخادمة ليبا انتحرت خوفا من العقاب !

ويطلب « سميون » الشاى ، فتقول الام ان موعد تناوله لم يحن بعد ، ولكنه يثور لهذا التقيد ، محاولا التمرد على استئثار أمه بالامر والنهى ٠٠ وتشكو «آنا» من أنها تسمع بالليل حركات وترى أشباحا !

فاسا : انه شبح « ليبا » ٠٠

آنا : ما أراك تؤمنين بأن أشباح المنتحرين تظهر ٠٠ !

سميون : ان أمنا لا تؤمن الا بالعملة والروبية !

فاسا : انك غبى ٠٠ لمن غير الاولاد كنا ندخر الروبلات ؟ ٠٠ وهاهم الاولاد يثبتون انهم لا يستحقون روبلا واحدا ٠٠ خليق بك أن تخجل من أنك لا تقوى على انجاب طفل صحيح ٠٠

سميون : هراء ٠٠ لقد أنجبت طفلا كان صحيحا رغم ان أمه خادم ٠٠ ولقد اعترفت « ليبا » لناتاليا بأنه ولد حيا ولكنها خنقته بيديها ٠٠ وقد استغللت أنت هذا السر لتشيعى الارهاب فى حياتها ٠٠ وهذا من أسباب انتحارها ٠٠

فاسا : أسمعت ياآنا ؟٠٠ احفظى هذا الدرس فأنت الاخرى أم ٠٠

◆ **وينصرف** « سميون » ، فتقول « آنا » لامها :

ـ الآن فهمت مدى ما تلقين يا أماه ٠٠ بل اننى أحيانا أخشى عليك ٠٠ ولا أكاد أفقه شيئا ٠٠

ـ ما أرى أن أحدا قادر على أن يفهم شيئا ٠٠ **أو لا ترين أن الرجال يكونون منذ مولدهم أقرب الى آبائهم منهم الى أمهاتهم ٠٠ لقد سمحت لهذا الابله بأن يتخذ عشيقة فى دارى من أجل صحته ، وها هو ذا يرمينى بتبعة الخطيئة التىارتكبتها منأجله!**

ـ أحقا ان الطفل ٠٠ ؟ لست أتصور ٠٠

ـ ماذا كان بوسعى أن أفعل غير ذلك ؟

ـ بهذه المناسبة أحب أن أذكر لك ان العم كتب رسالتين الى ابنه ٠٠ هاهما٠٠ لا أظن أنه يحسن بنا أن نسلمهما للبريد٠٠

وتبهت الام ، ثم تعجب بتصرف ابنتها فتهتف :

ـ انك بارعة يا صديقتى ٠٠ ان المرأة التى بين جوانحك هى التى أملت هذا التصرف ٠٠ لا ٠٠ ليست الكلاب هى التى تحرس الدور ، انما نحرسها نحن النساء ٠٠

وتشرع تساومها لشراء الرسالتين ٠٠ وتستنكر الابنة من أمها هذه الروح التجارية فتجيبها هذه :

ـ لست أهينك ٠٠ تذكرى انك أم ، وأى مسلك يجب أن لا يعيب الام اذا كان من أجل أطفالها ٠٠ حتى الخطيئة !

ولا تتمالك الابنة ان تهتف اعجابا : « انك ٠٠ رائعة ! »

ـ كل الامهات رائعات ٠٠ نحن جميعا خاطئات ٠٠ وشهيدات كذلك!٠٠سيكون حكم الله علينا رهيبا، ولكننى لن أقبل قط أن أجثو أمام بشر ! ٠٠ تذكرى ان كل المخلوقات الآدمية تعيش فينا وعن طريقنا ٠٠ نحن النساء ٠٠ الامهات ٠٠

ـ كنت أظننى حين قدمت بارعة ٠٠ أبرع منك ٠٠

ـ ابقى على ظنك ، فان أخطأت فسوف أصحح لك خطأك ٠٠ احتجزى كل خطابات عمك ٠٠ حتى اذا شاء أن يرسلها مسجلة، فان لدينا ايصالات تسجيل قديمة ، وقد مهر « ميخائيل » فى تزوير الاختام التى عليها٠٠وأذكرى اننا اذا استطعنا أن نستبقى أموال « بروخور » فسيكون لاولادك منها نصيب ٠٠ !

وهكذا تدخل « فاسا » وابنتها ـ وكلاهما أم ـ فى مساومة جديدة ، وبروح عملية ٠٠ تجارية ٠٠ وتأتى « ناتاليا » تذكرهما بموعد تناول الشاى ، وتنبئهما بأن « ليودميلا » فى غرفة العم ٠٠ وتبادر «آنا» اثر اشارة من أمها الى اللحاق بهما ، بينما تتحدث « ناتاليا » فى رجاء عن زوجة الموظف الذى فصلته « فاسا » عن العمل ، ذاكرة انها لا تكف عن البكاء ، فتقول « فاسا » فى لهجة جامدة :

ـ لن يجديها هذا شيئا، فان الدموع لا تغسل الخرق البالية٠٠

ـ ألا اصفحى عنه اكراما لذكرى ميتنا ٠٠

ـ ان الموتى لا يساهمون فى ادارة العمل ٠٠ وخليق بك ان لا تأسى على من لا يستحقون العمل ٠٠ وأولادى فى حاجة الى من يعمل فى خدمتهم بأمانة ٠٠ ولن أكون وفية لامومتى اذا أنا تركت مصالحهم فى أيدى سكيرين أفاقين ٠٠

ويفد « بافل » لتناول الشاى ، فيبدو فى حديثه حاقدا على

أمه •• وتنبئه « ناتاليا » بأن زوجته قد اتفقت مع عمه على أن تهجره وترحل مع العم ، ثم تردف قائلة :

ــ لكم أنا آسفة من أجلك ! •• كلانا سواء ••

ــ ما عرفت أنك الاخرى عرجاء كتعاء مثلى ••

ــ بل سواء فى الحظ •• وسواء فى الذكاء ••

ــ وما عرفت انك ذكية ••

ــ دع الهزء منى •• ان الام تظننى حمقاء ، وتعاملنى كما لو كنت غريبة عن الدار • ومع ان زوجى من سادة البيت الا اننى أعيش كالخدم •• بل ان الخدم لا يسمعون لى أمرا •• وكذلك حالك •• فليس لك من الحرية نصيب ••

ــ لقد مضى العهد بذلك ، أما الآن ففى وسعى أن أفعل بنفسى ما أريد •• سأرحل الى موسكو •• لقد سئمت كل شىء •• سئمتكم ، وسئمت البيت والارض والشركة ••

ويقبل « سميون » فيفاجىء « دنيا » مختفية بين الستائر تسترق السمع وتتجسس •••

ناتاليا : ان الام هى التى علمتها ذلك ••

بافل : اضربها على قفاها ••

ويقبل «بروخور» معتمدا على ذراعى « ليودميلا » و « آنا » فتبادر الاولى شقيق زوجها قائلة :

ــ دع « دنيا » ياسميون •• ما أشد ولعك بتعذيب الناس !

ناتاليا : أنت ! ؟

وتصيح « آنا » آمرة « سميون » بأن يفلت « دنيا » •

وما ان تنصرف الفتاة حتى تقول « ناتاليا » لبافل :

ــ لقد أصبح من حقها أن تصدر الينا الاوامر ••

ويصيح « سميون » فى أخته : « من أين لك هذا الوهم الذى يوحى لك باصدار الاوامر ؟ »

ويشتجر « بافل » مع عمه فتأمره « آنا » بأن لا يفعل ،

ولكنه يجيبها قائلا :
ـ ومن تكونين حتى تأمرينى ؟
ـ أختك الكبرى ٠٠

سميون : لم يدعك أحد للتدخل فى شئوننا ٠٠ لقد نلت نصيبك ولم يعد لك حقوق هنا ٠٠ !

ويعود « بافل » الى المشادة مع عمه ، فتؤنبه «آنا» قائلة ان الطبيب قد أنذر بأن العم مهدد بالموت لو أصيب بنوبة قلبية٠٠ ومع انها كانت تتحدث بلهجة المشفقة، الا أننا نفهم أنها ـ وقد أدركت مدى حقد « بافل » على عمه ـ انما تحرضه من طرف خفى !

وتلج الام المكان يتبعها « ميخائيل » ، فتؤنب «سميون» لانه أعاد الكاتب الذى فصلته الى عمله ٠٠ ويقول بروخور : « ان الزمن يقلب لك ظهر المجن يا « فاسا » ٠٠ لكم أرثى لك ! » ٠٠ فتجيبه : « شكرا ٠٠ استبق بعض الرثاء لنفسك »

ويدور نقاش يفصح عما يزخر به قلب كل فرد من الاسرة من حقد نحو الآخرين ٠٠ وتتملق « ليودميلا » الام فتقول لها هذه :

ـ لينعم الله عليك بالولد الصالح ياليودميلا ٠٠

فتشير المرأة برأسها نحو «بافل» وتقول: «من هذا؟ ٠٠ كيف يأمل أمرؤ فى ولد صالح منه ؟ »

ويهم « بافل » بأن يقذفها بقدح الشاى لولا ان تمسك أمه بذراعه ، فيتحول اليها قائلا : « أتنحازين اليها ؟ ٠٠ اذن فأعطنى نصيبى ٠٠ مالى ٠٠ أعطنيه ٠٠ اننى أمقتكم ! ٠٠ سأحرق الدار ٠٠ ما قيمتكم لدى؟ ٠٠ أم ٠٠ أأنت أم ؟ ٠٠ عم ٠٠ زوجة ٠٠ أخ ؟ ٠٠ من أنتم لى ؟ ٠٠ اعطونى مالى وسوف أرحل ٠٠

فاسا : وماذا لك هنا ؟

ناتاليا : كل شىء له ولسميون ٠٠ !

◆ **ويحـــاول** العم أن يغادر هذا الجو الصاخب اشفاقا على نفسه من النوبات القلبية ، فيستحث « آنا » على معاونته ولكنها تتلكأ ‥ وتقول لبافل : « أرأيت يا بافل؟ ‥ هاهو ذا العم يتوعك ثانية ‥ »

فيصيح بافل : « أنا السيد هنا ‥ أنا، الاعرج، الاكتع ، الاشوه ‥ دعوه يموت كالكلب ‥ وكذلك أنتم جميعا »

ويمتقع وجه العم ، وتتهدج أنفاسه ، ويقول فى عبـــارات متقطعة : « خذنى بعيدا ياميخائيل ‥ انه سيقتلنى » ‥ ويقفز بافل نحوه ثم يدفعه فى صدره ‥ ويتمالك بروخور نفسه ريثما يركل بافل فى بطنه ، ثم يهوى متهالكا فى مقعده ‥ وتهرع « آنا » لتعود بزجاجة الدواء له ، بينما يضع بافل يديه على بطنه وقد افترش الارض ، وراح يتلوى ‥ وتجرى أمه نحوه قائلة :

ـ بماذا ضربك ؟

ويسود الهرج المكان ‥ ويتوزع الحضور بين اســعاف « بروخور » ونقله الى غرفته ، ومواساة بافل ، ما عدا سميون الذى يقف يتأمل ما يجرى ، بينما تقول له « ناتاليا » :

ـ لقد تعمدوا أن يثيروا بافل على العم ‥

فتصيح فيها فاسا: «ماذا تنفثين أيتها الافعى؟‥ أخرجى‥!»

ـ لسنا خدما هنا، بل نحن السادة الآن ‥ سميون، انها توشك أن تفقدنى حلمى ‥

فيقول سميون لامه : « كفى ياأماه ‥ اننى الآن فى السابعة والعشرين ‥ وبافل فى الرابعة والعشرين ‥ لماذا تحدقين فى ؟ ‥ مهما حدقت فلن تؤثرى فى قانون الاغلبية ‥ وحق الابناء الشرعى فى الميراث ‥ »

◆ **وتقبل** « آنا » معلنة موت عمهــا ، فيســـود الصمت ‥ ويضطجع بافل فى مقعده ، بينما يجمد سميون فى مكانه ، وتتشبث به ناتاليا مرتجفة ‥ وتنكس « فاسا » رأسها ،

بينما تتطلع « آنا » اليها ٠٠ وأخيرا تقول الام :

ـ هاقد نلت بغيتك يا « بافل » ٠٠

ـ لا لوم على ٠٠ فقد كنت ثملا ٠٠

ونفهم من تعليق ناتاليا ان « فاسا » و «آنا » هما اللتان دفعتا اليه بالخمر ليثمل ! ٠٠ ثم تشرعان فى القاء تبعة الحادث عليه، وتمضيان فى التهويل مبالغتين فى وصف النتائج : أقاويل الناس والشائعات التى تبنى على ما كان بين بافل وعمه من شقاق ، وما يعود على الاول من نفع من جراء موت الثانى ٠٠ ثم تدخل البوليس ٠٠ وتمضى فاسا قائلة :

ـ ولقد حذرناك من أن تمسه ٠٠ وأنذرناك بأن ذلك يقتله٠٠ ولكنك تماديت متعمدا ٠٠ تسعى وراء غاية ٠٠ هل وعيت الآن ما فعلت ٠٠ أوعيت هول خطيئتك ؟

ويستبد ببافل الجزع ، فيهيىء ذلك للام أن تمضى قدما نحو الغاية التى رسمتها من قبل : « **سنقف بجانبك طبعا ازاء الناس ٠٠ ولكن ، بماذا تبرىء نفسك أمام الله؟ ٠٠ نصيحتى الوحيدة لك أن تأوى الى دير !** »

وبين عبارات الترهيب ، تبدأ حملة الترغيب : « ستعيش هناك فى سلام وطمأنينة ٠٠ وستتعود الصلاة لله ٠٠ من أجل نفسك ومن أجلنا ٠٠ وهنـاك ، لن يعيرك أحد بشوهتك ، ولن يسخر منك أحد ٠٠ »

ويتلفت المسكين حوله ، فلا يلمح ظلا للاشفاق على أى وجه ٠٠ بل انه يلمح « ليودميلا » تبتسم فيقول بمرارة :

ـ أتبتسمين لدمارى ؟

ـ بل أبتسم لحريتى ٠٠ (وتركع على الارض قائلة) انك انسان يابافل ٠٠ فى قلبك شىء من الرحمة ٠٠ اطلقنى بالله٠٠ دعنى أرحل أكن دائما أسيرة فضلك ! ٠٠ أقسم أن أذكرك واحيط ذكراك بكل حنان ٠٠ ولكننى لا أستطيع أن أعيش معك ٠٠ اننى أتقزز حين ألمسك ٠٠

ـ كفى ٠٠ سأذهب٠٠ تريدين أن أطلقك ؟ ٠٠ لا بأس ، فلم يعد يهمنى شىء ٠٠ (وتنهض فتقبل جبينه متحاشية أن تمسه يداها ، فيتراجع قائلا) **يا الهى !٠٠ كأنك تقبلين ميتا !٠٠ لماذا ، انك شريرة ٠٠ لا ، لن أذهب الى الدير يا أماه ٠٠ دعيهم يحاكمونى ٠٠ دعى البوليس ٠٠ ليتولاكم الشيطان ، فما كل الذى حدث الا نتيجة أكاذيبكم ٠٠ والا لتستولوا على مالى ٠٠ أعطونى مالى أرحل بعيدا ٠٠ الى آخر الارض ٠٠ أعطونى مالى، وكفى لعبا بى ٠٠**

واذ ذاك تجيبه فاسا فى هدوء : « لن أعطيك مالا ٠٠ لاميراث لكم ، فقد ترك أبوكم كل ثروته لى ٠٠ واشترط أن أستحوذ عليها كلها ، وحرم تقسيمها ! »

◆ **وكانت** هذه هى الوصية التى عملت لها حين خشيت أن يفلت الزمام من يدها بعد وفاة زوجها ٠٠ الوصية التى أملت نصوصها ، ورشت القس ليصدق عليها ! واشترت ذمم اثنين من الجيران كشاهدين ، وزوجها فى النزع الاخير ٠٠

ويسقط فى يد « بافل » فيلقى سلاح المقاومة ٠٠ ويولى من الغرفة ٠٠ ويقول « سميون » فى أسى :

ـ اذن ، يا أماه ٠٠

فتقول له : « اجرى يابنى ٠٠ كيف خيل اليك انك تستطيع أن تعيش بدون أمك ٠٠ لا سيما ومعك مثل هذه الزوجة الغبية! »

وتتراجع « ناتاليا » بدورها عن التحدى ، فتنحنى أمامها تسألها الصفح ٠٠ وينصرف الجميع فتترنح « فاسا » لولا أن تخف ابنتها لمساعدتها ٠٠ فتسألها بصوت أجش بعض الماء ، ثم تقول :

ـ اننى متعبة ٠٠ شق على أن أفعل هذا بابنى ٠٠أتفهمين؟٠٠ انه ابنى رغم كل شىء ٠٠ ولقد خطرت لى فكرة الدير فجأة ٠٠ كم من ليالى قضيتها مسهدة أفكر فيما أفعله به

وتأتيها « ليودميلا » بالماء ، وهى تطرى براعة تدبيرها ، فتحنو عليها الام وتسألها أن تعيش معها ، زاعمة انها ستبحث لها عن زوج يليق بها ، وستتخذ من أولادها أحفادا ٠٠ ثم تمسك فجأة، وتتساءل : « أنصتا ٠٠ ماهذا ؟ »

آنا : لست أسمع شيئا ٠٠

الام : لا تسمعين ؟ ٠٠ ظننتنى أسمع شيئا٠٠ **أواه يا ابنتى ٠٠ لقد ارتكبت كثيرا من الشر ٠٠ أذنبت وأثمت ضد اناس لا يستحقون أن يحمل الانسان وزرا من أجلهم ٠٠ وصدقانى اذا قلت ان المرء لا يلبث أن يشعر بالاسى من أجلهم ٠٠ الا أحبانى يا ابنتى ٠٠ قليلا من الحب ، فلست أطمع فى كثير ٠٠ اننى انسان رغم كل شىء ٠٠ وقد فعلت ما فعلت بابنى ٠٠ فلذة لحمى ودمى ٠٠**

وفجأة تقفز عن مقعدها مذعورة لتقول : « أهو يبكى ؟ ٠٠ ما أكثر ما أخال اننى أسمع ٠٠ قط لن أعرف للطمأنينة معنى ٠٠ أبدا ! »

وتتبادل « آنا » و «ليودميلا» النظرات وهما تحنوان عليها ، فترفع منظارها ، وتتطلع اليهما مبتسمة ٠٠ فى أسى ٠٠

وتهبط الستار

المؤلف

◆ **هو «أليكسى مكسيموفتش بيشكوف» الذى أتخذ لنفسه بعد أن احترف الكتابة اسم «مكسيم جوركى» .. وقد ولد فى ١٤ مارس سنة ١٨٦٨ فى مدينة (نيجنى نوفجورود) الواقعة على نهر الفولجا ، من أب فقير كان يعمل فى تنجيد المفروشات . وحين بلغ الصبى الخامسة مات أبوه ، وتزوجت أمه من آخر ، فأخذه جده لامه ليعيش فى بيته ، وكان الجد «كواء» كاسد الحال ، تسير أموره من سىء الى أسوأ .. وهكذا لم يكد مكسيم يبلغ التاسعة حتى اضطر لان يكسب عيشه بعرق جبينه .. فتنقل خلال الخمسة عشر عاما التالية بين مختلف الحرف ، فعمل حينا صبيا لخباز ، ثم قارعا لاجراس كنيسة ، فعاملا فى مطبعة ... الخ ـ وخلال تلك المدة قطع فى غمار بحثه عن العمل ارض روسيا من الشرق الى الجنوب ، ومن موطنه الاصلى الى الدانوب ، ثم الى جورجيا ..**



لكنه فى نفس الوقت كان حريصا على أن يعلم نفسه بنفسه ، فتعلم مبادىء القراءة والكتابة بواسطة دراسة كتب الترانيم الدينية !.. وعشق الاطلاع فكان يلتهم كل كتاب يقع فى يده بشراهة عجيبة .. ثم بدأ يمارس الكتابة ، وفيما كان يعمل فى ورش السكة الحديد بمدينة (تفليس) نشرت له احدى الصحف المحلية قصة من تأليفه . ثم ترك عمله الاصلى لينقطع للاشتغال بالصحافة . وفى سنة ١٨٩٥ وفق الى نشر قصة أخرى سماها «تشيلكاش» فى احدى صحف (سانت بطرسبرج) الكبرى ! وبعد عامين ظهرت له مجموعة من القصص فى شكل كتاب، وبدأ نجمه فى الصعود .. فاذا هو يجد نفسه قد وضع من الرأى العام فى مرتبة تولستوى !

وسرعان ما عبرت شهرته حدود وطنه الى دول اوربا المختلفة ، واعتبر من كتاب العالم البارزين . وفى سنة ١٩٠١ قبل «مسرح الفن» بموسكو تمثيليته التى اطلق عليها «الحضيض» ، فلما مثلت ظفرت بنجاح هائل .. حتى لقد استمرت تمثل على خشبة أحد مسارح برلين بألمانيا مدى عامين كاملين !!

داعية للسلام ..

◆ على أن اتصال جوركى منذ عام ١٨٩٩ بالديمقراطيين الاشتراكيين جلب عليه مطاردة البوليس واضطهاده اياه ، وان يكن ذلك قد ضاعف من شهرته فى أنحاء روسيا . وفى سنة ١٩٠٥ قام بدور ايجابى فى بعض الحركات الثورية، وفى العام الذى تلاه غادر روسيا ليقوم بجولة دعاية ضد القيصر !.. ثم استقر فى جزيرة كابرى ـ عام ١٩٠٧ ـ وفى تلك الآونة اتصل برباط الصداقة بالزعيم «لينين»

وفى سنة ١٩١٣ عاد جوركى الى (سانت بطرسبرج) حيث اصدر صحيفة «ليتوبيس» .. فلما نشبت الحرب العالمية الاولى اتخذ بالنسبة لها موقف الداعية للسلام .. ثم اندلعت الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧ فانضم جوركى فيها الى البلاشفة ، وعندما انتصروا كافأوه بتعيينه فى منصب

«المتحدث الرسمى الثقافى للحكومة» ، وبذل جهودا كبيرة لتخفيف متاعب الطبقات المثقفة ، والمحافظة على الكنوز الثقافية ..

لكن اعتلال صحته بسبب ضعف رئتيه أجبره فى سنة ١٩٢٢ على مغادرة روسيا الى حيث أقام زمنا فى المانيا ، ثم فى سورنتو بجنوب ايطاليا . وفى سنة ١٩٢٨ عاد الى وطنه فاستقبل فيه استقبالا حماسيا هائلا !..

واقام هناك حتى مات فى موسكو يوم ١٨ يونية سنة ١٩٣٦

نصير الفقراء والصعاليك ..

◆ وينقسم كفاح جوركى الادبى الى ثلاث مراحل : المرحلة الاولى ، وقد توفر فيها على كتابة القصص القصيرة المستمدة من حياة الصعاليك واللصوص والمنبوذين . ومن أشهر هذه القصص : «رفيقى المسافر» ، و«ستة وعشرون رجلا وفتاة»

والمرحلة الثانية ـ بعد سنة ١٨٩٩ ـ هى التى كتب فيها جوركى رواياته الطويلة ومسرحياته ، التى استهدف منها تصوير الحياة الروسية وايجاد حلول للمشكلات الاجتماعية الحادة التى تواجه أبناء الطبقات الفقيرة، بحيث طغت هذه الغاية على حبكة أكثر تلك الروايات وقالبها الفنى .. فلم يأت عام ١٩٠٦ حتى أضحى مكسيم جوركى معبود الجماهير ولاسيما من أفراد الطبقة العاملة ، الذين اعتبروه بمثابة الناطق بلسانهم ! وفى تلك الفترة كتب روايته الطويلة «الام» ـ وهى غير مسرحية «الام» التى لخصتها لك فى الصفحات السابقة ـ وقد اقتبس منها فيلم رائع اخرجه المخرج السوفييتى المشهور «بودوفكين» .

أما المرحلة الثالثة من حياة جوركى الادبية فتبدأ عام ١٩١٣ حين أصدر الجزء الاول من قصة حياته وذكرياته ، التى أتبعها فيما بعد بجزئين آخرين. وتعتبر الاجزاء الثلاثة ـ والى جانبها كتابه التالى «شذرات من مفكرتى» ـ أقوى أعماله الادبية على الاطلاق ، فهى بمثابة معرض حافل بالشخصيات الروسية التى وصفها وحللها بقلم متعمق ، وواقعية تستشف ما وراء المظاهر..

وفى سنواته الاخيرة كتب جوركى ثلاثة روايات ، تعالج مشكلات اجتماعية هامة ، وهذه الروايات هى : «قصة أرتامونوف» ، و«المتفرج» .. ثم «حياة كليم سامجهين» ، التى مات قبل أن يكتب فصليها الاخيرين ..

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية من كتابى ، الكتب الاتية على التوالى : «كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » للعالم النفسانى ماكدونالد لاديل ، ثم «طريق السعادة الزوجية» لفردريك برينك ، و «مركب النقص» تأليف و. ماكبرايد، و «حواء الجديدة» ـ مرشد المرأة العصرية المستنيرة الى سعادتها ، قبل الزواج وبعده ـ للدكتور كورتنى بيل، ثم «كيف تقهر الخجل» تأليف س. تيار ، و «كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة » لجون كنيدى ..

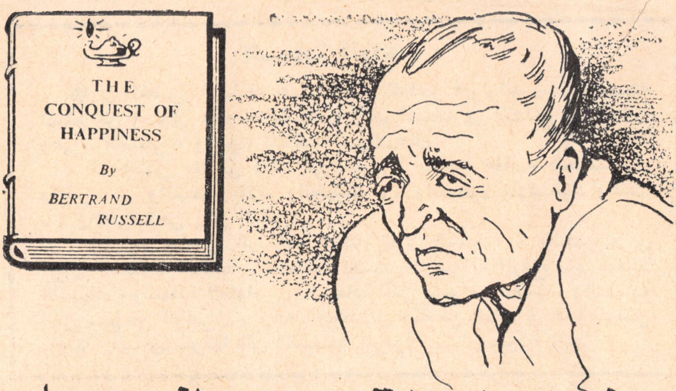
ثم قدمت لك فى الاعداد التسعة التالية ، من فنون الحياة التى شرحها المفكر العالمى «اندريه موروا»: فن الحب، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن السعادة ، فن التفكير ، واخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم انتقلت بك منذ العدد الاسبق من صحبة اندريه موروا الممتعة الى صحبة مفكر عالمى آخر هوالفيلسوف الانجليزى المعاصر «برتراند رسل» الذى شرح لنا بدوره موضوعات امتع من سابقتها وأروع ، ومنها : كيف تقهر الحسد ، كيف تقاوم القلق والخوف ، كيف تفهم أسرتك ، كيف تستمتع بالحياة والحب والعمل ، كيف تنجح بغير كفاح !.. الخ

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..



"غزو السعادة" لبرتراند رسل

سعادة الجسد
وسعادة الروح



السعادة أنواع ..

◆ فى الفصول السابقة حدثنا المفكر المعاصر «برتراند رسل» حديثه الممتع عن وسائل مقاومة الشقاء ، وأهم أسبابه فى المجتمع الحديث ، وهى : الضجر ، وجنون المنافسة ، والارهاق

ثم انتقل بنا من ذلك الى تبصيرنا بكيفية مغالبة الحسد .. والغيرة .. والشعور بالاثم والخطيئة .. والشعور بالاضطهاد والظلم .. والخوف من رأى الناس ..

واليوم يواصل «رسل» حملته لغزو السعادة ، بالحديث عن ألوان السعادة المختلفة : سعادة الجسد ، وسعادة الروح .. سعادة البسطاء ، وسعادة العلماء .. السعادة التى تنبع من القلب ، والسعادة التى تنبع من الرأس .. وهكذا تجد كل فئة من البشر فى هذا الفصل بغيتها وصدى شوقها الى السعادة المرموقة .. وسبيلها اليها

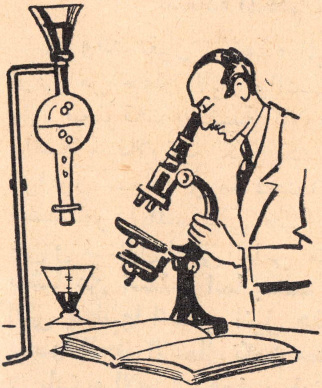
الفصل الاول :
هل ما زالت السعادة ميسورة المنال ؟

◆ **كدت** اخلص من بعض الاحاديث ، ومما ورد فى كتب بعض الاصدقاء، الى ان السعادة اصبحت فى دنيانا الحديثة مستحيلة .. ولكني بالتأمل ، والاسفار ، ومجاذبة البستانى — الذى يعنى بحديقتى — اطراف الحديث، أشعر بان هذه الفكرة لا تكاد تستقيم ..

ذلك ان السعادة صنفان ، وان تخللتهما درجات وسط بينهما .. وقد يصح ان نسمى احد هذين الصنفين صريحا واضحا ، والآخر خيالا موهوما .. او هما سعادة حيوانية ،



سعادة البسطاء ..



وسعادة العلماء ..

وسعادة روحية .. احداهما تنبع من القلب ، والاخرى مبعثها الرأس .. !

وانى لاذكر رجلا عرفته وانا بعد صبى ، كان يتفجر سعادة ، مع انه كان يعمل فى حفر الآبار !.. وكان بالغ الطول ، مفتول العضلات لدرجة لا يكاد يتصورها العقل ، لا يعرف قراءة ولا كتابة .. بل لا يكاد يعرف حقوقه ولانظم الحكم التى يعيش فى ظلالها !.. فما كانت سعادته مستمدة من موارد ذهنية ، ولا كانت قائمة على ايمان بقانون طبيعى ، او على كمال العنصر والجنس ، او ملكية الشعب للمرافق العامة ، او اية عقيدة مما يعتبرها المثقفون لازمة للاستمتاع بالحياة .. وانما كانت سعادته تعتمد على القوة الجسدية ، وكفاية ما اوتى من عمل ، وتغلبه على العقبات الممثلة فى الصخور التى كان يحفر آباره خلالها ..

وكانت سعادة البستانى — الذى يعنى بحديقتى — من النوع ذاته .. فهو يشن حربا دائبة على الارانب التى كانت تسطو على الحديقة ، وكان يرى فيها مخلوقات قاتمة ، شرسة ، تتعمد الايذاء ، ولا سبيل لمقابلتها الا بمكر لا يقل عن مكرها .. ومع انه كان قد تجاوز السبعين ، الا انه كان يقضى يومه بأكمله فى العمل ، ويقطع ستة عشر ميلا على الدراجة — فى طريق جبلية — ساعيا الى عمله ثم عائدا الى داره .. ولكن كفاح الارانب كان يهيىء له نبعا يفيض بمرح لا ينضب !

سعادة المتعلم .. وسعادة الجاهل !

◆ **وقد** تقول ان هذه المباهج ساذجة لا تلذ لمن هم مثلنا ارقى من حفار الآبار والبستانى ، اذ اية لذة فى شن الحرب على مخلوقات ضئيلة كالارانب ؟.. وهذه حجة تبدو لى واهية ، فالارنب يكبر بكثير الميكروبات الدقيقة التى يجد الراقون سعادة فى مكافحتها .. ومن ثم فان عين الغبطة التى يستشعرها البستانى من مسراته الساذجة البسيطة ، هى فى متناول أرقى الناس تعليما .. **اذ ان الفارق الوحيد الذى ينشأ عن التعليم انما يقتصر على مظاهر النشاط ، والجهود التى يتطلبها السعى لنيل هذه المسرات .. ذلك لان المتع التى يبعثها انجاز الاعمال تكون محفوفة بصعاب يبدو معها النجاح ـ فى بادىء الامر ـ موضع ارتياب ، وان كانت تنتهى عادة الى تحقيق تلك المتع** .. ولعل هذا هو السر فى ان تواضع الانسان فى تقدير قواه يكون مبعث هناءة له .. اذ ان المرء الذى يتواضع فى تقدير نفسه ، يجد فى النجاح مفاجأة تلذ له .. فى حين ان الذى يغلو فى تقدير نفسه يجد فى الفشل مفاجأة تؤلمه .. لذلك فمن الحكمة ان لا تبالغ فى تقدير نفسك ، وان كان من الحكمة ايضا ان لا تغالى فى التواضع ..

العلماء أسعد من اهل الادب والفن

◆ **ولو** اننا تأملنا ارقى اقسام المجتمع ثقافة اليوم ، لوجدنا ان أسعد ابنائها هم العلماء .. ذلك لانهم اوتوا بساطة فى الشعور ، فهم يجدون من عملهم الرضى العميق الذى يجعلهم يستمدون من الاكل والشراب والزواج سرورا ومتعة .. وقد يجد اهل الفن والادب ان الشقاء فى الزواج لازمة تشيع بينهم ، ولكن العلماء كثيرا ما يوفقون فى الاحتفاظ بالسعادة العائلية ، وذلك لان عملهم يستغرق اسمى اقسام ذكائهم فلا تبقى لها فرصة تتسلل فيها الى مجالات لا شأن لها فيها .. **وهم يسعدون فى عملهم لان العلم فى دنيانا الحديثة عامل قوى ودافع**

من دوافع التقدم ، ولان احدا – مهم سما علمه او ضؤل – لم يعد يرتاب فى اهمية العلم .. ومن ثم فليست بهم حاجة الى العقد والمركبات العاطفية ، لان ابسط مشاعرهم تنطلق دون ان تلتقى بأية عقبة .. والمركبات العاطفية كالزبد فى النهر ، لا تنشأ الا حين يصطدم التيار المنساب بعقبات .. وطالما كان النشاط الحيوى منسابا دون عرقلة ، فلن يكون للفقاقيع والزبد سبيل للظهور على سطح التيار ..

وهكذا تتحقق فى حياة العالم كل الظروف والاسباب المهيئة للسعادة .. اذ ان لديه من النشاط ما يمكنه من استغلال كل مواهبه الى اقصى حد ، ومن بلوغ نتائج لاتبدو مهمة له وحده ، وانما هى تظهر واضحة للرأى العام كله وان لم يتفهمها على اتمها .. ورجل العلم – فى هذا – اسعد حظا من رجل الفن ، فان الرأى العام اذا عز عليه تفهم صورة او قصيدة ، حكم عليها بالتفاهة .. اما اذا عز عليه تفهم نظرية علمية فانه يقر بأنها صحيحة ، وبأن عجزه عن استيعابها راجع الى قلة تحصيله العلمى !.. وهكذا نجد «اينشتين» موضع تقدير – ومن ثم فهو سعيد – فى حين ان خيرة الرسامين يتضورون جوعا ، ويتخبطون فى احضان الشقاء ..

وصحيح ان هذه الحال ليست مطلقة فى كل زمان وفى كل مكان ، ولكنها الحال الغالبة .. ولعل لهذه الظروف اثرا فى ان الفنانين – فى المتوسط – اقل سعادة من رجال العلم ..

شباب الشرق المتنور اسعد من مثيله الغربى

◆ **واعتقد** ان من الواجب ان نقر بأن معظم الشبان المتعلمين فى الدول الغربية ، معرضون لذلك النوع من الشقاء الذى يترتب على الاخفاق فى العثور على الفرص الملائمة لاستغلال خير مواهبهم على اكملها ..

على ان هذه الحال لا توجد فى دول الشرق ، فالشباب المتنور فى روسيا اليوم سعداء الى حد كبير ، على ما ارى ، إذ ان لديهم دنيا جديدة يشتركون فى خلقها ، وعقيدة يتحمسون لها ويخلقون عالمهم وفقا لها .. ولقد يلوح ايمان الشاب الروسى فجا او سخيفا فى نظر الشاب الغربى .. ولكن ، اى ضير فى ذلك ، ما دام صاحبه سعيدا ؟

ولقد تعكر سعادة الشباب المثقف فى الهند والصين واليابان ظروف خارجية ذات طابع سياسى ، ولكن هذه السعادة لا تعانى من الصعاب الداخلية مثلما فى الغرب .. فهناك الوان من النشاط تبدو مهمة للشباب ، فهو سعيد طالما قدر لها النجاح .. ذلك ان الشبان يشعرون بأن لهم فى الحياة القومية دورا هاما ، واهدافا ينبغى ان يسعوا اليها ، ولا يعز عليهم تحقيقها رغم صعوبتها .. اما الاستخفاف الذى كثيرا ما يجده المرء متفشيا فى ارقى شبان وشابات الغرب تعليما فينشأ عن اجتماع الراحة والعجز معا ، اذ ان العجز يحمل الناس على الشعور بان ليس من شيء يستحق عناء العمل ، فى حين ان الراحة تهون عليهم مرارة هذا الشعور . ولقد يجد الشباب الجامعى فى الشرق بأسره مجالا لزيادة تأثيره على الرأى العام اوسع مما قد يجد فى الغرب ، بيد ان الفرص التى تنفسح امامه لكسب الدخل المادى اقل من تلك التى تسنح للغربى .. ولما كان بعيدا عن الشعور بالراحة وبالعجز ، فانه يتحول الى مصلح او الى ثورى ، لا الى مستخف مستهتر كزميله الغربى . ومع ان سعادة المصلح او الثائر تتوقف على مجرى الشئون العامة ، الا انه يستمتع ــ حتى فى حالة الحكم عليه بالاعدام ــ بنصيب من السعادة الحقيقية يفوق ما يستشعره الشخص المستهتر الذى ينعم بالراحة .

◆ **ولست** اعنى ان سعادة المتنورين هى كل ما هنالك من انواع السعادة ، فهى لا تسنح الا لاقلية ضئيلة ، لانها تتطلب مواهب وسعة اهتمام لا تتهيئان للجميع . وليس مشاهير العلماء وحدهم هم القادرون على ان يستمدوا من العمل متعة ، لا ولا الزعماء الساسة هم القادرون على التماس الهناءة فى الدفاع عن قضية ما ، **وانما متعة العمل مباحة لاى شخص يستطيع ان يجد فى ممارسة مهارته قناعة ترضيه دون ان ينشد تصفيق العالم . ولقد عرفت يوما رجلا فقد القدرة على استخدام ساقيه وهو فى باكورة الشباب ، ولكنه ظل مستمتعا خلال عمره الطويل بسعادة غامرة ، وذلك بالعكوف على تأليف كتاب من خمسة اجزاء عن الآفات التى تصيب الورود ، ضمنه نتاج خبرته .** ولقد سمعت ممن عرفت من الخبراء بالاصداف ، ان دراستها تدخل على المشتغلين بها غبطة ورضى . وكم من اناس عرفتهم يستشعرون لذة فى مزاولة اعمال صعبة ، بعيدة المنال ، لا تقل عن نشوة الراقصة اذ تمارس الرقص الذى تهواه!

لماذا يهجر الفلاحون الريف الى المدن ؟

◆ **ولقد** اعتدنا ان نقول ان استمتاع الصانع بعمله قد تناقص فى عصرنا الحالى ، عصر الآلة .. ولكننى لا اطمئن الى صحة هذا القول ، فان العامل المدرب وان اشتغل اليوم حقا باشياء تختلف كل الاختلاف عن تلك التى كانت تشغل بال نقابات الحرف فى القرون الوسطى ، الا انه لا يزال عنصرا بالغ الاهمية وذا ضرورة ماسة فى الاقتصاديات القائمة على الآلة . فهناك من يصنعون الادوات العلمية والآلات الدقيقة ، وهناك واضعو التصميمات ، والميكانيكيون المعنيون بآلات الطائرات ، وسائقو السيارات ، وغيرهم ممن يمارسون حرفا يمكن للمهارة الفنية ان تبلغ فيها

درجة عالية .. **ولقد لاحظت ان العامل الزراعى والفلاح فى المجتمعات المتأخرة - نسبيا - لا يكادان يصيبان من السعادة ما يصيب قائد السيارة او الآلة .. وصحيح ان عمل الفلاح الذى يتولى حقله بنفسه، متعدد الجوانب متباينها ، فهو يفلح ، ويبذر ، ويحصد ، ولكنه تحت رحمة العوامل التى تؤثر فى المحصول ، وهو شديد الشعور باعتماده عليها .. فى حين ان العامل الذى يدير آلة حديثة ، يشعر بالقوة والعزة ، ويكتسب الاحساس بان الانسان سيد لقوى الطبيعة، وليس عبدا بين يديها** .. ومن المسلم به ان العمل يفقد لذته بالنسبة لأغلب العمال الذين يعملون على الآلات ، وتقتضيهم اعمالهم ان يكرروا عملية آلية مرارا وتكرارا دون ما تغير يذكر ، بيد ان العمل كلما قلت متعته زادت سهولة انجازه بوساطة الآلة وحدها .. **وان الهدف الاسمى للانتاج الآلى - وهو الذى ما زلنا قاصرين عن بلوغه - يتمثل فى الوصول الى نظام تتولى الآلات بمقتضاه اداء كل عمل غير ممتع ، ليتسنى ادخار الادميين للاعمال التى تتطلب تلونا وابتكارا** .. فاذ ذاك يغدو العمل اقل بعثا للسأم والضجر مما كان فى اى عهد مذ عرفت الزراعة حتى اليوم .. ولقد كان العمل لذة وبهجة ، حين كان الانسان يحصل على قوته بممارسة الصيد ، ويستطيع المرء ان يرى صحة هذا من استمرار الاغنياء فى الاقبال على الصيد للتسلية . ولكن الجنس البشرى بدأ - بادخال الزراعة - فترة انحطاط ، وتعاسة ، وجنون ، لم يبدأ فى التحرر منها الا الآن ، بفضل الخير الذى تؤديه الالات .

ومن الجميل لذوى العواطف الشاعرية ان يتحدثوا عن صلة الانسان بالارض ، وعن الحكمة التى يجنيها الفلاحون من هذا الاتصال ، ولكن هذا لا يمنع كل شاب قروى من ان تكون اعز امانيه ان يجد فى المدينة عملا يفر اليه من استعباد الريح

والجو ووحشة ليالى الشتاء المظلمة، ويجد عنده الجو «الانسانى» الذى يسود المصنع والسينما . **وهكذا نرى ان الزمالة والتعاون عنصران لازمان لتحقيق سعادة الانسان المتوسط (العادى) ، وهما اكثر سنوحا فى الصناعة منهما فى الزراعة ..**

العقائد والهوايات من اهم اسباب السعادة

◆ **والايمان** بقضية من القضايا من بواعث السعادة للكثير من الناس .. ولست اقصر ذلك على الثوريين والاشتراكيين ، والوطنيين فى البلاد المغلوبة على امرها ، ومن الى هؤلاء ، وانما اراه يشمل ايضا الكثيرين الذين يؤمنون بقضايا اقل من تلك شأنا .. فمن السهل للمرء ان يجد امرا يعتقد بصحته ويؤمن به دون ان يكون فى ذلك الامر شىء من الخيال المتطرف ، فاذا صح اعتقاده وايمانه فانه لا يلبث ان يجد فيه ما يشغله فى سويعات فراغه ، وما يملأ عليه حياته ..

والاستغراق فى هواية من الهوايات لا يختلف فى كثير عن الايمان بقضية غير جلية ولا شائعة .. ومن مشاهير العلماء الرياضيين الذين لا يزالون على قيد الحياة ، عالم قسم وقته بالعدل والقسطاس بين العلوم الرياضية وهواية جمع طوابع البريد . ويخيل الى انه يجد فى هذه الهواية تسرية تهون عنه حين يعز عليه ان يمضى فى علومه تلك .. وليست مصاعب اثبات النظريات الرياضية بالشىء الوحيد الذى تعالجه هواية جمع طوابع البريد .. كما ان الطوابع ليست بالشىء الوحيد الذى يمكن هواية جمعه .. فهناك الخزف القديم ، وعلب السعوط ، والعملات القديمة .. وقد تقول ان هذه المتع البسيطة تبدو للكثيرين منا متواضعة .. فقد مارسناها فى صبانا ، حتى اذا كبرنا خيل الينا – لسبب او لآخر – انها لا تليق بالرجال الناضجين .. **وهذا محض خطأ ، فان كل متعة لا تنطوى على ضرر للغير ، خليقة بان تكون ذات قيمة ونفع ..**

وانا – من ناحيتى – اجمع الانهار ، اى اننى اهوى ارتيادها ، واشعر بالاسف لاننى لم ازر بعضها بعد .. ولست اخجل من مثل هذه العواطف الساذجة .. وهناك من يشغف بلعبة مثل «البيزبول» ، فهو يقلب صفحات الجرائد فى لهفة ، ويجد فيما يذاع بالراديو من انبائها لذة تثيره ..

احب الناس فى غير رغبة فى التسلط او التملك

◆ **على** ان الهوايات والالعاب الرياضية ليست فى الغالب من الموارد الاساسية للسعادة ، وانما هى وسائل للفرار من الحقيقة ، وتناسى الآلام التى نعجز عن تحملها لفترة من الزمن .. **وانما تتوقف السعادة الاصلية اكثر ما تتوقف على ما نسميه الاهتمام الودى بالاشخاص والاشياء .. فالاهتمام الودى بالاشخاص نوع من المحبة ، لا يتطلب استجابة ، ولا يدعو الى تشبث ورغبة فى التملك ، لان النوع الذى يتطلب هذا كثيرا ما يكون مبعثا للشقاء ..** انما النوع الذى يؤدى الى السعادة هو ذاك الذى يغرى على تأمل الناس والابتهاج بما اوتوا من خصال فردية وهو الذى يتيح مجالا للاهتمام والاستمتاع باولئك الذين تصلنا الظروف بهم ، دون ما رغبة فى ان نبسط عليهم اى سلطان او نفوذ ، او فى ان نستأثر باعجابهم . فالشخص الذى يسلك نحو الناس هذا المسلك صادقا ، يجد فيه موردا للسعادة ، ونبعا لتعاطف متبادل .. اذ ان علاقاته بسواه – سواء كانت بسيطة او وطيدة – تغدو كافية لارضاء نفسه وعواطفه .. **ومجرد احساسه الداخلى بالسعادة ، كفيل بأن يجعله رفيقا يستطيب الناس صحبته .. وهذا – فى الوقت ذاته – يضاعف من سعادته .. وهكذا**

ولقد اشرت من قبل الى ما دعوته بالاهتمام الودى «بالاشياء» ، وهو تعبير قد يبدو غير دقيق . ولكننى اعتقد ان ثمة شيئا شبيها بالود والصداقة فى اهتمام العالم

الجيولوجى بالصخور ــ مثلا ــ واهتمام عالم الآثار بالاطلال .. وهذا الاهتمام خليق بان يكون عنصرا اساسيا فى مسلكنا نحو الاشخاص والجماعات .. ومع ان المشاعر المتولدة عن الاهتمام «بالاشياء» لا تعادل فى السعادة اليومية ما يتولد عن المسلك الودى نحو اندادنا من «البشر» ، الا انها برغم ذلك عامل مهم من عوامل الرضى .. ذلك لان الدنيا واسعة ، وقوانا فيهـا محدودة ، فاذا ارتبطت سعادتنا بأسرها بالظروف الشخصية فحسب ، فاننا لا نلبث ان نجد أنفسنا مسوقين لان نتطلب من الحياة فوق ما فى طوقها ان تمنحنا .. والاسراف فى الطلب لا يعود دائما الا بأقل مما يمكن ان يجتنى .. ومن ثم نجد ان الرجل الذى يستطيع ان ينسى همومه بالاستغراق فى اهتمام حقيقى «بشىء» من الاشياء ــ كتاريخ الكواكب مثلا ــ لا يلبث حين يرتد الى الحياة من تأملاته ، ان يتبين انه اكتسب هدوءا يمكنه من ان يعالج همومه على خير وجه ، بعد ان يكون قد نعم بقسط من السعادة .. والسعادة الحقيقية .. ولو لامد محـــدود !

ومما تقدم نجد ان سر السعادة يتمثل فى هذه النصيحة : دع اهتمامك وعنايتــك يتسعان الى اقصى نطــاق ممكن .. ويشملان اكبر عدد من الاشياء والاشخاص .. كى يكون لك دائما ما يشغلك عن هموم الحياة ..

الفصل الثانى :
التحمس للاستمتاع بالحياة

◆ وفى رأيى ان استطابة الحياة ، والرغبة او التــحمس والاقبال على الاستمتاع بها ، هى اظهر وابرز معالم الرجــل السعيد ..

ولكى نوضح «الاقبال على الحياة» نضرب مثلا بالتصرفات المتباينة التى تصدر عن الناس اذا جلسوا الى الطعام .. **فهناك** من لا يرون فى الاكل غير ضرورة مملة ، فهم يقبلون عليه فى غير اهتمام مهما كان شهيا .. وهم لا يفطنون الى حاجتهم اليه حتى يبرح بهم الجوع !

وهناك المرضى الذين يجتازون دور النقاهة .. فهؤلاء لا يأكلون الا عن شعور بالواجب ، لان الطبيب انبأهم بضرورة الاهتمام بتغذية انفسهم لتنمو قواهم ..

على ان هناك من الجهة الاخرى : الاكولون ، الذين يهتمون باصناف الطعام ولذة مذاقها .. فهم يبدأون الاكل والامل يملأ نفوسهم ، فلا يلبثون ان يتبينوا انه اقل جودة — فى الطهو والاعداد — مما كان ينبغى !

ثم هناك النهمون الشرهون ، الذين ينقضون على الطعام فى لهفة واقبال ، فيملأون منه بطونهم على سعتها ، ثم يتراخون فى اماكنهم ويغطون فى نومهم متخومين ..

واخيرا ، هناك اولئك الذين يبدأون الاكل بشهية سليمة ، فيستمرئونه ، ويأكلون منه فى اعتدال حتى يكتفوا ، ثم يتحولون عنه ..

ومثل الذين يجلسون الى مائدة الحياة مثل هؤلاء جميعا فى مسلكهم نحو ما تقدمه لهم المائدة من اطايب .. ومثل السعيد من الرجال مثل النوع الاخير ممن اوردنا من الآكلين .. اما ذاك الذى يضيق بالاكل فشبيه للتعس الذى يعانى الشقاء الذى كان يردده «بايرون» فى قصائده ، اذ كان يرى ان الامس خير من اليوم ، وان الحياة لن تؤثر بنى الانسان بخير مما آثرتهم به فى الماضى .. اى ان «اليوم الذى ينقضى لا يجىء افضل منه» على حد التعبير الدارج .. فى حين ان الناقه الذى يقبل على الاكل بشعور من يؤدى «واجبا» ، يشبه — فى معرض الحديث عن السعادة — الزاهد المتقشف .. والشره

النهم فى الطعام يقابل الشهوانى المكب على ملذات الحياة .. الخ

ومن العجيب ان جميع هؤلاء - اللهم الا الشره النهم - يزدرون الشخص الذى اوتى شهية متفتحة للاكل ، ويرون انهم ارقى منه ، وان من النقص المعيب ان تستمرىء الطعام لانك جائع ، او تستطيب الحياة لانها حافلة بالعديد من المناظر الممتعة المتباينة ، والتجارب المثيرة .. ومن ثم فهم يطلون من علياء وهمهم على اولئك الذين يزدرونهم وكأنما هؤلاء مخلوقات ساذجة ، بسيطة ..

الزهد مرض يجب ان يعالج !

والواقع اننى لا اقر هذا الرأى فى شىء ، فكل الوان التعفف والزهد - فى رأيى - مرض لا امارى فى ان بعض الظروف قد تفرضه بحيث لا يكون ثمة سبيل الى تفاديه ، ولكنه - مع ذلك - يجب ان يعالج اذا ما حدث بأسرع ما يمكن، لا ان ينظر اليه كنوع من الحكمة السامية !!

مثل ذلك مثل الشخص الذى لا يحب «التوت» ، فمن اية وجهة يعتبر اسمى او ارقى ممن يحب التوت ؟ .. الواقع انه ليس ثمة دليل مجرد - لا يستند الى اهواء شخصية - على ان التوت فاكهة طيبة او غير طيبة ، فهى طيبة لدى من يحبها ، وهى فجة بالنسبة لمن لا يحبها .. غير ان الذى يحبها يستأثر منها بمتعة لا تتوفر لدى الذى لا يحبها ، ومن ثم فان حياته اكثر بهجة ، كما انه اكثر تمشيا مع الحياة التى يعيش فيها ، من الاخر ..

والشىء نفسه ينطبق على ما هو اهم .. فالرجل الذى يستمتع بمشاهدة مباراة فى كرة القدم ، يمتاز عن الذى لا يجد فى ذلك متعة .. والرجل الذى يستمرىء القراءة يمتاز عن الذى لا يستمرئها ، بدرجة تفوق ما فى المثال السابق ، لان فرص القراءة اكثر سنوحا وتوفرا من فرص مشاهدة مباراة كرة القدم . **وكلما ازدادت الاشياء التى يهتم بها الانسان ،**

كلما كانت فرص السعادة لديه أكثر ، وكلما كان اقل تعرضا لان يكون تحت رحمة القدر ، اذ انه اذا فقد متعة فسرعان ما يجد غيرها ..

وقد تكون الحياة اقصر من ان تسمح بالاستمتاع بكل شيء ، واذن فيجدر بنا ان نهتم بما يكفى من الاشياء لكى يملأ علينا ايامنا ..

مرض الاعراض عن الدنيا ، او الانطواء على النفس

◆ **وكلنا** معرضون لمرض الانطواء ، الذى يوحى الى المرء بأن يعرض عن الدنيا بأسرها ، ليتأمل الفراغ الذى فى اعماقه .. والواقع ان الذهن آلة غريبة تخلط المواد التى تقدم اليها بطرق مدهشة ، ولكنها اذا حرمت من هذه المواد التى تأتيها من العالم الخارج عنها ، باتت بلا حول ولا قوة . وهذه حال الرجل الذى فقد التحمس للحياة والاقبال عليها .. فالرجل الذى يقصر اهتمامه على نفسه لا يجد شيئا فى اعماقه يستحق المشاهدة .. اما الذى يحول اهتمامه بعيدا عن شخصه ، فانه يجد — فى اللحظات النادرة التى يفحص فيها نفسه — اعجب مجموعة متعددة ، متباينة ، من العناصر التى تثير الاهتمام ، وقد فرزت ، ثم مزج بعضها ببعض فى اشكال جميلة او مفيدة ..

وللاقبال على الحياة اشكال تفوق الحصر .. ومن ثم فالحياة لا يمكن أن تكون يوما مملة للمرء الذى يجد فى أى شيء يعرض له مادة للتأمل والتنقيب عن المعانى ، كما كان يفعل «شرلوك هولمز» حين كان يستقرىء اى شيء يعثر عليه ما يرجو من بيانات !.. ولك أن تتصور الاشياء المختلفة التى يسهل ملاحظتها أثنـاء نزهة خلوية .. فمن الناس من يهتم اذ ذاك بالطيور ، ومنهم من يهتم بالخضر ، وثالث يهتم بطبقات الارض ، ورابع بالزراعة ، وهكذا ..

كذلك ما أعجب تباين مسالك مختلف الناس نحو زملائهم من بنى البشر !٠٠ فهناك من يخفق تماما فى تأمل زملائه أثناء السفر فى القطار ، فى حين أن هناك من يتأملهم فى تمعن ، ويحلل شخصياتهم ، ويكون بعض الآراء عن ظروفهم ، وقد يوفق فى ان يحدس ادق الاسرار الخفية فى حياة بعضهم ٠٠

وكما يتباين الناس فيما يكونونه من آراء عن سواهم ، نراهم يختلفون فى شعورهم نحوهم ٠٠ فمن الناس من يكاد يضيق بكل الناس ٠٠ ومنهم من يوفق بسهولة وسرعة الى توطيد الشعور الودى مع أولئك الذين تدفعه الظروف الى الاتصال بهم ، ما لم يكن ثمة سبب واضح لان يشعر بغير ذلك ٠٠

الاقبال على الحياة فى الاسفار ٠٠ وفى المرض

ولنعد مرة أخرى الى حديث الاسفار ٠٠ فمن الناس من يجوس خلال كثير من البلدان ، فيهبط فى خير الفنادق ، ويحظى بعين ما كان يحظى به فى وطنه من مأكل ، ويجتمع بنفس من كان يلتقى بهم فى بلده من أغنيـــاء خاملين ، ويتحدث فى نفس الموضوعات التى كان يتحدث بها حول مائدته وفى موطنه ٠٠ فاذا عاد من سفره لم يشعر بغير الارتياح من الملل الذى داخله لطول تنقله فى القطارات الفاخرة !

على أن هناك من يحرصون أينما حلوا على تبين أهم ميزات المكان الذى يهبطون فيه ، وعلى التعرف على الناس الذين يمثلون تلك البيئة ، وعلى ملاحظة كل ما يدعو الى الاهتمام من الشئون الاجتماعية أو التاريخية ، ثم يعودون الى بلادهم برصيد جديد مدخر من الافكار الممتعة ، يهون عليهم ليالى الشتاء ٠٠

وفى كل هذه المواقف المختلفـة ، نرى الرجل الملئ بحب الاقبال على الحياة يمتاز على ذاك الذى لا يستطيبها ٠٠ حتى التجارب غير السارة تكون ذات نفع له !٠٠ **ومن المجافاة للحق أن نقول ان هؤلاء الناس بمنأى عن أن يكونوا تحت رحمة**

القدر ، فان من المحتمل جدا أن يفقدوا رغبتهم فى الحياة لو انهم فقدوا صحتهم مثلا ٠٠ وان كانت هذه ليست بقاعدة محتومة ، فقد عرفت أناسا ماتوا بعد سنوات قضوها فى عذاب وآلام مبرحة ، ولكنهم ظلوا مع ذلك محتفظين بحبهم للحياة حتى آخر لحظة ٠٠ ذلك لان بعض أنواع المرض لا تقوى على القضاء على روح الاقبال على الحياة واشتهائها ٠٠

اشتهاء الحياة حافز على التفوق ..

◆ **واشتهاء** الحياة يكون فى بعض الاحيان أمرا عاما، ولكنه فى أحيان أخرى أمر خاص ٠٠ بل وخاص جدا ٠ والذين قرأوا قصة « لافنجرو » يذكرون ذلك الرجل الذى فقد زوجته التى كان مشغوفا بها ، فشعر ان الحياة جرداء خاوية ٠٠ وكان يتجر بالشاى، فأخذ يتغلب على ملل الحياة بمحاولة تعلم اللغة الصينية خلال النقوش التى كانت على صناديق الشاى ٠٠ فأفضى به هذا الى أن وجد فى الحياة شيئا جديدا استثار اهتمامه ، فأقبل على دراسة كل ما يختص بالصين فى تحمس وشغف ٠٠!

ومن المستحيل أن يتنبأ المرء بما قد يجتذب اهتمام أى انسان، ولكن معظم الناس قادرون على أن يوجهوا اهتمامهم لامر من الامور ـ حسب ميولهم ـ فاذا تم ذلك تحررت حياتهم من التكرار الرتيب الممل ، واستطاعوا ان يقبلوا على الحياة ..

ومع ذلك ، فمن المتع الخاصة ما يكون موردا اقل ادرارا للسعادة من الرغبة العامة فى الحياة ..

ولقد ذكرنا فيمن ذكرنا ـ حين مثلنا الحياة بالمائدة والناس بالآكلين ـ شخصية الشره النهم ٠٠ وقد يرى القارىء أن مشتهى الحياة ـ الذى دأبنا على اطرائه ـ لا يختلف في شيء عن هذا النوعين من الناس :

الاقبال على الحياة شىء .. و«الشراهة» شىء آخر !

◆ **لقد** كان القدامى يعتبرون الاعتدال من أهم الفضائل اللازمة . ولكن الكثيرين تحولوا عن هذا الرأى بتأثير ايحاء الثورة الفرنسية ، وأصبحت الميول الجامحة موضع اعجاب ، حتى لو كانت هدامة أو معادية للمجتمع .. **ومع ذلك ، فقد كان القدامى على حق وصواب . فلا بد للحياة الطيبة من توازن بين أنواع النشاط المختلفة ، فلا ينبغى الاستمرار فى أحدها الى درجة تجعل من المستحيل ممارسة الانواع الاخرى** .. وصاحبنا الشره يضحى بكل المتع فى سبيل متعة الاكل ، ومن ثم فهو يقلل محصوله الاجمالى من السعادة فى حياته .. وكثير من الاهواء الاخرى تغرى الانسان على التمادى فيها الى هذا الحد.. فقد كانت الامبراطورة « جوزفين » ذات شراهة .. ولكن الى الثياب ! فكان « نابليون » يدفع ـ فى بادىء الامر ـ حساب الحائكة طائعا ، وان أخذت احتجاجاته فى الازدياد ، حتى انتهى به الامر الى أن صارح زوجته بأن عليها أن تتعلم الاعتدال ، وانه لن يدفع بعد ذلك من نفقات ثيابها الا بالقدر المعقول .. فلما تلقت أول كشف للحساب من الحائكة بعد ذلك ، تولتها الحيرة، ولكنها سرعان ما اهتدت الى حل ، فذهبت الى وزير الحربية وسألته أن يدفع حسابها من الاعتمادات المخصصة للحرب .. واذ كان يدرك أن لها من السلطان ما يكفى لاقصائه عن منصبه، فانه استجاب لرغبتها .. وقد ترتب على هذا الامر التافه فى ذاته نتائج ـ ليس هذا مجال تفصيلها ـ انتهت الى أن فقد الفرنسيون « جنوا » !

وسواء كانت القصة صحيحة ، أو كانت تنطوى على مغالاة ، الا أنها تكفى لان تبين الى أى مدى تنساق المرأة وراء الشغف بالثياب !

وادمان الخمر والافراط فى الحب الجنسى مثالان آخران من أمثلة الشراهة التى تخرج عن نطاق الاقبال على الحياة أو

اشتهائها ٠٠ والمبدأ الذى ينبغى أن نتبعه فى هذه الامور ، أو الحد الذى نلتزمه ، **هو أن كلا من أذواقنا وشهواتنا ــ على حدة ــ يجب أن يتسق مع الهيكل العام لحياتنا ، ولكى يكون مبعثا للسعادة يجب أن يتلاءم مع الصحة ، وأن يتمشى مع مودة أولئك الذين نحب ، ومع احترام المجتمع الذى نعيش فيه ٠**

ومن أهوائنا ما يمكن التمادى فيها دون تجاوز لهذه الحدود، ولكن منها ما لا ينطبق عليه هذا القول ٠٠ فالرجل الذى يهوى الشطرنج مثلا ــ لا حاجة به الى أن يحد من هوايته اذا كان أعزب، مقتدرا من الناحية المالية ٠ أما اذا كانت له زوجة وأولاد، ولا موارد خاصة له ، فان من واجبه أن يحد من هوايته بكل ما فى وسعه ٠

مقياس الاعتدال فى ممارسة الهوايات

◆ **وهناك** أشياء يجب أن نجعلها بمثابة سياج لحياتنا لا يتجاوزه أى هوى من أهوائنا والا صار مصدرا للشقاء ٠ ومن هذه الاشياء الصحة ، والتمتع بمواهب خاصة ، وامتلاك دخل يكفى لسد الحاجات الضرورية ، وأداء الواجبات الاجتماعية التى لا بد منها ، كتلك التى ندين بها للزوجة والابناء ٠ فاذا ضحى رجل بهذه الامور فى سبيل الشطرنج مثلا ، فانه لا يكون أقل سوءا من مدمن الخمر ٠٠!

ولقد كان لدى الاغريق مقياس للاعتدال فى أمثال هذه الحال: فالرجل الذى يهوى الشطرنج الى درجة تجعله يترقب خلال عمله المباراة التى سيخوضها اذا ما آن له فى المساء أن يلعب ، رجل مجدود ، سعيد الحظ ٠٠ أما الرجل الذى يتخلى عن عمله ليقضى يومه فى لعب الشطرنج فرجل انعدمت فيه فضيلة الاعتدال !

على أن ثمة أعمالا أوتيت من السمو والنبل ما يبرر التضحية بكل شئ فى سبيلها ٠٠ فلا لوم ولا تثريب على الرجل الذى يضحى بحياته فى الدفاع عن وطنه وان ترك زوجته وأولاده معدمين ٠٠ ولا يعاب الرجل الذى يتوفر على تجارب تبشر بكشف

علمي عظيم ، اذا كان استغراقه فى التجارب يكبد أسرته عناء العيش فى فقر ، ما دامت تجاربه هذه كفيلة بأن تكلل فى النهاية بالنجاح ٠٠ على انه اذا أخفق تعرض لسخط الرأى العام، وهو جزاء غير منصف ، لان أحدا لا يستطيع أبدا أن يضمن لنفسه النجاح فيما هو مقدم عليه ٠٠

الشراهة تخفى رغبة فى النسيان !

◆ **واذ** نمضى قدما فى التفرقة بين الشراهة الى الطعام وبين اشتهاء الحياة ، أود أن أذكر اننى أعتقد أن ثمة فارقا نفسيا عميقا بين الشره وبين الاكول ذى الشهية السليمة للاكل ٠٠ فالمرء الذى تطغى فيه رغبة على بقية الرغبات الاخرى ، يعانى عادة من اضطراب متأصل فى أعماقه ، فهو يبغى التهرب منه ٠٠ وهذا نراه واضحا فى حالة مدمن الخمر ، فالناس عادة تقبل على الشراب بغية النسيان ، ولولا أن فى حياتهم أشباحا يودون الفرار منها ، ما آثروا السكر على اليقظة والرشد ٠٠

والقول ذاته ينطبق على كل النزوات الجامحة ، فان ممارسيها لا ينشدون المتعة فيها بالذات ، وانما فى النسيان الذى يصاحبها ٠٠ **بيد أن ثمة اختلافا كبيرا بين نسيان يرجى بوسائل حقيرة، ونسيان يتأتى من وراء ممارسة مواهب مرغوبة في حد ذاتها** ٠٠ فالرجل الذى علم نفسه اللغة الصينية ـ فى قصة «لافنجرو» كما ذكرنا ـ كان ينشد النسيان ، ولكنه سعى اليه بجهد لا يؤدى الى ضرر ، بل هو على العكس شحذ ذكاءه وزاد معرفته ٠٠ ومثل هذه الوسيلة من وسائل الفرار من أشباح الحياة ، لا لوم عليها ولا تثريب ٠٠ على عكس السعى للنسيان عن طريق الشراب أو الميسر !

على أنه لا مراء فى أن ثمة حالات تقع وسطا بين هذين النوعين ٠٠ فماذا نقول ـ مثلا ـ فى الرجل الذى يقوم بمغامرات جنونية فى الطيران أو فى تسلق الجبال لانه لم يعد يحفل

بالحياة ؟ .. اننا قد نعجب به اذا كان لمخاطراته هدف عام .. أما اذا لم يكن لها هدف ، فاننا نضعه فى درجة لا تفوق درجة السكارى والمقامرين الا قليلا ..!

سجية فى الحيوان ، والانسان « الحر » !

◆ **والاقبال** على الحياة – عن شعور صادق صحيح لا مجرد رغبة فى النسيان – جزء من التركيب الطبيعى للانسان ، وان قضت عليه بمرور الاجيال ظروف تعسة .. فأنت ترى الصغار يهتمون بكل ما يرون ويسمعون ، اذ أن الدنيا مليئة بالمفاجآت التى تدهشهم، ومن ثم يندفعون فى حماس وراء المعرفة – ولست أعنى المعرفة المدرسية ، وانما أقصد التعرف الى كل ما يسترعى اهتمامهم ..

والحيوانات – حتى التى جاوزت مرحلة الصغر منها – تظل محتفظة بروح الاقبال على الحياة ، ما لم تعكر عليها المتاعب الصحية هناءها ..

كذلك الانسان الذى لم يمن يوما بخيبة أو فشل يهزان كيانه ، فانه يظل محتفظا باهتمامه الطبيعى بكل ما فى الدنيا – خارج شخصه .. وطالما بقى محتفظا به ، فان الحياة تبدو له هنيئة ، بهيجة .. اللهم الا اذا رسفت حريته فى قيود لا ضرورة لها . والواقع ان فقدان الرغبة والاقبال على الحياة فى المجتمع المتحضر ترجع فى الغالب – وأكثر ما ترجع – الى القيود المفروضة على الحرية ، والتى لا غنى عنها لانها من لوازم الحياة التى ينتهجها المجتمع .. فبينما كان الرجل الفطرى يقبل على الصيد اذا جاع ، مدفوعا بدافع مباشر ، **نرى الرجل العصرى الذى يذهب فى ساعة معينة من كل صباح الى عمله ، ينساق فى الواقع بنفس الدافع – وهو الحاجة الى كسب العيش – ولكن بصورة ملتوية .. فالرجل حين ينطلق الى عمله لا يكون جائعا ، بل انه يكون قد غادر مائدة الفطور لتوه .. ولكنه**

يدرك أن الجوع لن يلبث أن يواتيه، وان الذهاب الى العمل وسيلة لاشباع الجوع الذى يأتى فى المستقبل ..

لا حرية فى المجتمع المتحضر !

وهكذا الامر بالنسبة للدوافع جميعا . فالدوافع الغريزية غير منتظمة ، ولكن العادات فى المجتمع المتحضر يجب أن يكون طابعها الانتظام .. فالقبيلة ـ فى الحالات الفطرية ـ اذا تهيأت للحرب ، دقت الطبول التى تثير الحماس للقتال ، وكان لاندفاع الجموع ايحاء يدفع كل فرد بدوره .. اما الاعمال الجماعية فى العصر الحديث فلا يمكن ان تؤدى بنفس الطريقة ، اذ من المستحيل اذا اريد اطلاق قطار من محطة ما فى موعد محدد ـ مثلا ـ ان نلجأ الى الموسيقى البربرية لاثارة الحوافز التى توحى للسائق ولعامل الاشارة وللحمال بأن ينشطوا للعمل .. ولكن كلا منهم يقبل على عمله من تلقاء نفسه لشعوره بان اداءه واجب .. ومن ثم فالدافع الذى يحركهم ليس مباشرا ، وانما هو غير مباشر ، لانه لا يحفزهم للجهد لمجرد ذاته ، وانما هو يحفزهم لنيل الجزاء الذى يتأتى عن الجهد ..

ومعظم حياتنا الاجتماعية اليوم تسير على هذا المنوال .. ففى كل لحظة يتعرض الانسان المتحضر لقيود تحد من دوافعه الغريزية ، مما يجعل من العسير عليه ان يحتفظ بالرغبة فى الحياة والاقبال عليها .. **ومع ذلك ، فلا سبيل الى قيام المجتمع المتحضر بدون تقييد الدوافع الغريزية الى درجة ما ، لان تضارب الدوافع يحول دون تيسر ارقى اشكال التعاون التى تتطلبها النظم الاقتصادية الحديثة ..**

وبالرغم من كل هذا ، فان هناك افرادا يستطيعون ان يحتفظوا برغبتهم فى الحياة واقبالهم عليها ، مالم تستغرق جهودهم متاعب نفسية ..

الفصل الثالث : المودة والحب

◆ **ومن** اهم اسباب فتور الاقبال على الحياة شعور المرء بانه غير اثير بحب احد ، فان شعور الانسان بانه محبوب ، يذكى فى نفسه لذة العيش والاقبال على الحياة ..

وينشأ شعور المرء بانه غير محبوب ، عن عدة اسباب متباينة : فهو قد يرى نفسه قبيح الشكل الى درجة لا تشجع احدا على حبه .. او هو ربما اعتاد منذ صغره ان يحظى بنصيب من الحب اقل مما كان يحظى به اقرانه من الاطفال .. وقد يكون هو بالفعل مخلوقا لا يجتذب محبة الناس ، وان كان هذا فى الغالب يرجع الى فقدان الثقة فى النفس ، نتيجة صدمة اصابت الشخص فى الصغر ..

وشعور المرء بانه غير محبوب قد يدفعه الى عدد من التصرفات المتباينة .. فهو قد يبذل اقصى الجهود لاكتساب الود ، بالاسراف فى السخاء والكرم الى درجة غير مألوفة .. وان كان هذا ابعد المسالك عن النجاح المضمون ، لان الحافز على الكرم كثيرا ما يبين خلال تصرفات الكريم ، وقد جبلت النفس البشرية على أن لا تبذل الود الا لأقل الناس سعيا وراءه .. ومن ثم فان الرجل الذى يشترى الود بأعمال الخير والبر ، لا يلبث ان ينهار وهمه لما يبدو له من عدم تقدير الناس لفضله ، اذ لا يخطر له ببال ان الود الذى يحاول ابتياعه اغلى واعز من الفوائد المادية التى يقدمها ثمنا له ..

ومن الناس من اذا فطن الى انه غير محبوب ، سعى الى الثأر لنفسه من العالم اجمع بان يشعل الحروب ، او يقيم الثورات ، او يغمس قلمه فى مداد من الافكار المسمومة .. ومثل هذا التصرف يتطلب من صاحبه قوة شخصية تكفى لان تمكنه من ان يعادى الدنيا كلها ..

على ان الذين يسلكون هذا الاتجاه قلة بين النـاس ، والاغلبية الساحقة من الرجال والنساء ، يستسلمون ـ اذا اعرض الناس عن حبهم ـ لليأس المظلم الذى لا تبدد ظلماته سوى ومضات من الحسد او الشر .. والسائد ان حياة افراد هذا الفريق من الناس تغدو مركزة حول انفسهم ، فلا يعودون يأبهون بسواهم ، اذ يخلق افتقاد الود عندهم شعورا بالقلق وعدم الطمأنينة .. ومن ثم فهم يحاولون التهرب من هـذا الشعور بان يعتادوا لونا خاصا من الحيـاة يتركونه حتى يتسلط عليهم تماما ، فيغدون عبيدا له .. ولهذا تجدهم ينطوون على انفسهم خوفا من برودة العالم المحيط بهم ..

اما الذين يواجهون الحياة مطمئنين ، فغالبا ما يكونون اسعد من اولئك الذين يواجهونها والطمأنينة تعوزهم .. لان الشعور بالطمأنينة لا يودى بهم الى التهلكة ، بل انه يساعد المرء على ان ينجو من اخطار قد لا يقوى غيره على النجاة منها .. وانت اذا سرت على لوح ضيق فوق هوة عميقة ، فان مجرد الشعور بالخوف كفيل بان يرديك فيها .. وهكذا الحال فى طريق الحياة !

الاعجاب يقوى الشعور بالطمأنينة ..

◆ **والشعور** بالطمأنينة والثقة بالنفس له اشكال عدة ، ولكنه فيما يختص بالحياة عموما ، يتأتى عن تعود المرء ان يتلقى من «المودة» قدرا يعادل ما هو فى حاجة اليه ..

والمودة المكتسبة ، لا المودة المبذولة ، هى التى تخلـق الشعور بالطمأنينة .. وان كان الغالب ان المودة «المتبادلة» ابعد اثرا فى خلقه .. ولو شئنا ان نكون اكثر دقة ، فخليق بنـا ان نقول ان الاعجاب ـ لا المودة وحدها ـ يبث فى النفـس الشعور بالطمأنينة .. وانك لتجد اولئك الذين يتوقف نجاحهم

فى مهنهم على اكتساب اعجاب الرأى العام ـ كالممثلين والوعاظ والخطباء ـ يعتمدون باستمرار واطراد على تصفيق الجماهير **..ويبلغ اقبالهم على الحياة واستطابتهم اياها اشده اذا ما احرزوا ما هم بحاجة اليه من اعجاب الرأى العام .. فان لم يحرزوا ذلك انقلبوا ساخطين ، وانطووا على انفسهم .. ذلك لان حب العالم اذا ما حظى به امرؤ ، كفيل بان يستل من قلب ذلك المرء كل خوف وان ينتزعه من عزلته وانطوائه ..**

الحب الذى يبدد الخوف .. والحب الذى يزيده !

على ان هذا الاثر ليس نتيجة حتمية لكل انواع الحب والمودة ، اذ لابد للنوع الذى يؤتى هذه النتيجة ان يكون قويا، جريئا ، نزاعا الى السمو اكثر منه الى طلب السلامة ، ومن ثم نرى الشخص الذى يحظى به لا يحفل بالسلامة فى سبيل الرقى الذى يتجه اليه ..

وعلى النقيض من ذلك الود الذى يشبه حب الام الجبانة التى لا تفتأ تحذر ابنها مما قد يتعرض له من نكبات ، والتى تظن ان كل كلب متحفز لان يعض ابنها ، وان كل بقرة ليست سوى ثور وحشى هائج .. فمثل هذه الام تخلق فى ابنائها الجبن ، وتجعلهم لا يشعرون بالطمأنينة الا الى جوارها .. وبمضى الزمن يغدو هؤلاء الاطفال اسوأ حالا مما لو كانوا لم ينعموا بالحب اطلاقا .. !

وكثير من الناس اذا وقعوا فى الحب بحثوا عن ملجأ صغير يلوذون به من الدنيا ، وينعمون فيه بما يفتقدون من اطراء واعجاب ربما كانوا غير اهل له . لهذا كان البيت بالنسبة لاكثر الناس ملاذا من الحقيقة والواقع ، اذ ان مخاوفهم وجبنهم تحملهم على ان يستطيبوا صحبة من يسرى عنهم ويبث الارتياح فى نفوسهم .. وهم ينشدون من زوجاتهم مالم يجدوه من قبل من امهاتهم الحمقاوات ..

وليس من السهل تحديد خير انواع الود ، اذ لابد من ان نجده مشوبا بعنصر وقائى .. فنحن لا نغفل قط الضر الذى يصيب من نحب ، **ولو اننا تعمقنا فى بحث هذه الحقيقة ، لوجدنا ان خوفنا من اجل سوانا افضل – الى حد بسيط – من خوفنا من اجل انفسنا .. ولكنه كثيرا ما يكون ستارا لاهتمامنا بانفسنا** .. ولعل فى هذا ما يفسر لنا سر حب كثير من الرجال للنساء الكثيرات التخوف والتوجس ، فان هذا التخوف يتيح للرجال ان يفرضوا حمايتهم على أولئك النساء .. وبمعنى اوضح ، يسهل لهم فرصة تملكهن والزواج منهن !

المرأة « أرقى » من الرجل فى حبها !

ولقد قصرنا حديثنا عن الحب – حتى آلان – على ناحية علاقته بالطمأنينة .. ولكنا يجب ان لا نغفل انه بالنسبة للانسان الناضج ، لابد وان ينطوى على هدف آخر ، هو الابوة .. والعجز عن المراودة على الحب الجنسى مصدر من مصادر الشقاء للرجل او المرأة ، لانه يفسد الحياة الزوجية ويحرم الطرفين لذة الرغبة فى الحياة والاستمتاع بها ..

وهذه الظاهرة اشد اثرا لدى الرجل منها لدى المرأة ، لان المرأة اكثر استعدادا لان تحب الرجل لشخصيته دون ما شىء آخر .. فهى تنشد فيه ميزات وخصالا تفوق تلك التى ينشدها هو لديها ، وهى فى هذا تعتبر ارقى منه ..

ومرة اخرى ، قصرنا حديثنا حتى الآن على الحب المكتسب ، دون ان نسهب فى الكلام على الحب المبذول .. فهذا بدوره نوعان ، احدهما يعتبر اهم تعبير عن الرغبة فى الحياة ، فى حين ان الآخر يعبر عن الخوف ..

فلو اننا افترضنا انك خرجت على ظهر سفينة تسير فى يوم جميل بحذاء الساحل ، فانك لا تلبث ان تعجب بالساحل وتستشعر غبطة تستمد فى الواقع من نظرك الى ما هو خارج

عن كيانك ، فليست لها اية علاقة او صلة باية حاجة ماسة فى اعماقك .. اما اذا غرقت السفينة وطفوت على الماء ، واضطررت الى ان تسبح الى الشاطىء ، فانك تجد نفسك بحاجة الى نوع جديد من الحب ، يمثل لك الطمأنينة ضد الموج .. ومن ثم لا يعود جمال الساحل او قبحه ذا اهمية تذكر بالنسبة لحبك اياه وتشوقك اليه ..

وخير انواع الحب الذى تبذله للناس ، هو ذاك الذى يشبه حب راكب السفينة للساحل وهو مطمئن الى سلامته ، فهو يحبه لجماله ولاعجابه به فحسب .. اما ان تحب او تود لحاجة بنفسك الى من تحب او تود ولشعورك بان لديه ما ترجو من امان وحرية فنوع من المحبة اقل شأنا من ذاك ..

وبالاجمال ، فخير الود ما كان متبادلا .. كل يتلقى الحب فى اغتباط ، ويبذله دون ما جهد او تكلف .. وكل يرى الدنيا اكثر اهمية ومتعة بسبب وجود السعادة المتبادلة ..

المحبة التى تمليها المآرب الشخصية !

على ان هناك نوعا آخر ــ ليس غريبا او غير شائع ــ وهو الذى ينطوى على استغلال أحد الطرفين لمودة الآخر ، فهو يتلقى منه جماع عواطفه ، ولا يبذل له فى مقابلها شيئا تقريبا .. مثل هذا الصنف من الناس مثل مصاص الدماء ، فهو يمتص حيوية سواه ، وبينما يثرى وتزداد مكانته فى الحياة ، نرى الضحية يذوى ويضمحل .. فالمحبة والمودة فى هذه الحال وسيلة لاستغلال الغير فى سبيل المآرب الشخصية .. والذى يمنى بهذا النوع من الود لا يهتم بمن يخال انه قد احبه ، وانما هو يهتم بمدى ما يستطيع ان يفيد من جهوده ونشاطه ..

وهذا يؤكد ما قلنا من ان خير الود ما كان صادرا عن شعور صادق متبادل .. ونضيف الى هذا انه يجب ان يكون

للصالح المتبادل – ايضا – للطرفين .. **والطموح الذى يجرد المرء من الشعور بهذا النوع من الود ، ليس سوى نتيجة سخط او حقد على الجنس البشرى ، نشأ عن شقاء فى الصغر ، او عن غبن منى به المرء فى حياته ، فخلق فيه الشعور بالظلم والرغبة فى ان يظلم ..**

الحذر فى اظهار الحب يهدد السعادة الحقة !

والواقع ان العقبات – النفسية والاجتماعية – التى تقف فى طريق ازدهار الود المتبادل ، هى اخطر الشرور التى عانى العالم – ولا يزال يعانى منها – فالناس يبطئون فى اظهار الاعجاب خشية ان يساء استغلال اعجابهم .. وهم يبطئون فى بذل المودة خشية ان يضاروا ممن يودون ، او من العالم الذى يحصى عليهم تصرفاتهم ويراقبها ومن ثم فهم يلتزمون الحرص والحذر باسم الاخلاق وباسم الحكمة الدنيوية ، فلا يؤدى هذا الا الى تثبيط روح الكرم والسخاء والاقدام والمخاطرة .. فى دنيا العواطف والمودة ..

وعندى ان كل الوان الحذر فى الحب ، هى اخطر ما يهدد السعادة الحقة ..

الحياة قصة



روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء ...

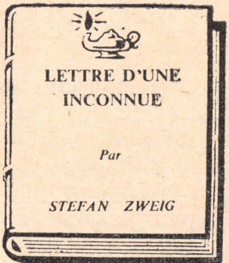
قرأت معى فى الاعداد الماضية من « كتابى » ، القصص الآتية على التوالى :

- أموك : لستيفان زفايج
- قلب عذراء: جون جالزورثى
- مرتفعات وذرنج: اميلى برونتى
- التلميذ : بول بورجيه
- أحدب نوتردام: فيكتورهوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- أيام بومباى الاخيرة : لورد ليتون
- مانون ليسكو : الاب بريفو
- حديقة الله: روبرت هتشنز
- عندما تحقد المرأة : جورج أونيه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين: سنكليرلويس
- الشيطان على الارض : برتراند رسل
- تاييس : أناتول فرانس

واليوم أقدم لك فيما يلى هذه القصة الانسانية الخالدة من روائع «ستيفان زفايج» ، التى تفوق قصته السابقة اضعافا .. والتى سوف تفتنك كما فتنتنى وفتنت كل من قرأها.

ستيفان زفايج

رسالة من مجهولة!





◆ وقف القطار فى محطة «فينا» فى الصباح الباكر ، وهبط منه الروائى المعروف (... ...) بعد رحلة فى الجبال استغرقت ثلاثة أيام .. وفيما هو خارج من المحطة ابتاع صحيفة الصباح ، فوقــع بصره مصادفة على التاريخ . وللفور تذكر أنه عيد ميلاده ، الحادى والاربعين !.. لكن الذكرى لم تثر فى نفسه شعورا بالبهجة أو الاسى ، فمضى يقلب صفحات الجريدة برهة .. ثم استقل سيارة حملته الى بيته

وبعد أن سرد عليه خادمه أنباء الزيارات والمحادثات التليفونية التى تلقاها فى فترة غيابه ، أحضر له بريده على طبق .. فالقى السيد على المظاريف نظرة عابرة ، ثم بدأ يفض منها ما رجح أهميته قبل غيره ، بعد أن ترك جانبا مظروفا منها بدا له أن صاحبه غير معروف .

وحين فرغ من قراءة بقية الرسائل تناول الشاى ، ثم استرخى فى مقعده فى تكاسل ، وعاد يقلب صفحات الجريدة .. فلما لم يجد فيها ما يثير اهتمامه اشعل سيجارة ، وتناول الرسالة المتروكة ففضها .. واذا هى «مخطوط» أكثر منها رسالة عادية . فقد كانت مؤلفة من ٢٤ صفحة مكتوبة بخط مضطرب ، يبدو بوضوح أنه خط امرأة !.. وبحركة غير ارادية ، عاد الروائى يلقى على المظروف نظرة ليرى ما اذا كان يحوى رسالة تقديم ، لكنه وجده فارغــا ، والمخطوط غفلا من التوقيع !

وبدا له ذلك كله غريبا ، فتناول الاوراق ينشرها أمامه ويقرأ . كانت فى الصفحة الاولى هذه الكلمات : «اليك يا من لم تعرفنى قط !» .. فتوقف برهة مدهوشا يتساءل : «ترى هل الخطاب موجه اليه هو حقيقة ، أم موجه الى شخص خيالى ؟ »

واستيقظ فضوله ، فشرع يقرأ :

- ١ -

« **لقد** مات طفلى ليلة أمس ، بعد أن ظللت أصارع الموت من أجل انقاذه طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليال ، لم أبرح خلالها مقعدى الى جواره ، وأنا أشهد الحمى تصرع بدنه الصغير المسجى فوق الفراش بلا حراك ، وأنقل يدى بين جبهته التى تكاد تحترق ، ويديه الملتهبتين .. وفى الليلة الثالثة كان الاعياء قد هدنى ، وأغلق عينى على الرغم منى ، فأغفيت فى مقعدى ثلاث ساعات أو أربعا .. خطف الموت أثناءها ولدى !



« والآن ، ها هو الصغير الغالى ما يزال فى فراشه، وكأنه لم يمت !٠٠ كل التغيير الذى طرأ عليه أنى أسبلت أجفانه على عينيه اللامعتين الذكيتين ، وطويت يديديه فوق قميصه الابيض ٠٠ ثم أضأت على قوائم السرير أربع شمعات !

« انى لا أجرؤ على النظر اليه، أو الابتعاد عنه ٠٠ فان لهب الشموع حين يخفق ويتأرجح ، يلقى على وجهه وفمه المطبق ظلالا تجعل قسماته تبدو وكأنها تنبض بالحياة ٠٠ فأخاله لم يمت ! وأروح أترقب يقظته ، وأمنى سمعى بكلماته الساذجة العذبة التى تعودت أن أسمعها منه حين يفتح عينيه كل صباح !

« لكننى أعلم انه قد انتهى ، انتهى منذ أمس ٠٠ وانه لم يبق لى فى الدنيا سواك ٠٠ أنت الذى لا تعرف عنى شيئا ، والذى ربما كنت تلهو فى هذه الساعة وتضحك وترقص! نعم، لم يبق لى سواك ، أنت الذى لم تعرفنى قط ٠٠ والذى أحببتك أنا على الدوام !!

« لقد تناولت منذ لحظة الشمعة الخامسة ووضعتها هنا فوق المنضدة التى أكتب عليها ، لانى لا أستطيع أن أبقى وحيدة مع طفلى الميت بغير أن أصرخ من أعماق روحى!٠٠ ولمن أتوجه فى هذه الساعة الرهيبة اذا لم أتوجه اليك ، أنت الذى كنت لى كل شىء ، وما تزال !؟

« لا أدرى اذا كنت أستطيع التعبير عن مكنون نفسى بوضوح كاف أم لا ، فانى أحس برأسى يثقل وأطرافى تؤلمنى ، وأحسب

انها الحمى قد أصابتنى بدورى ٠٠ وليتها تكون ٠ فلخير لى أن أرحل مع ولدى من أن أضطر الى انتزاع حياتى من جسدى بالعنف ٠٠ فقط أخشى أن أعجز عن اتمام هذه الرسالة ، لهذا أجدنى أستجمع الآن كل قوتى كى أخاطبك مرة ، ولا غير هذه المرة ، أيها الحبيب الذى لم يعرفنى قط !٠٠ والذى اليه وحده أتوجه ، فأبوح له لاول مرة بكل شىء ٠٠!

« **انك ستقف الآن على سر حياتى كلها ، الحياة التى وقفتها أنا عليك من البداية بغير أن تعرف٠٠ لكنك لن تطالع الآن سرها الا بعد أن أكون قد فارقتها ، وبعد أن يحول موتى بينك وبين أن ترانى ، أو تجيب على رسالتى !**٠٠ فاذا قدر لى رغم كل شىء أن أعيش ، فسوف أمزق خطابى وألزم الصمت من جديد ، كما سبق أن لزمته ٠٠ أما اذا وصل هذا الخطاب الى يديك ، فاعلم أن التى تقص عليك حياتها انما هى امرأة ميتة ، استقرت فى قبرها ! ولا يعتريك الخوف منى ٠٠ فالميتة لا تستطيع أن تطالب بشىء ، لا بحب ، ولا بعاطفة ، ولا بعزاء ٠ كل ما أطالبك به أن تصدق كل حرف أخطه اليك على هذا الورق !٠٠ انه رجائى الاوحد اليك ، والمرأة لا تكذب فى ساعة موت طفلها الوحيد !

- ٢ -

« ◆ **عند** ما عرفتك كنت أجتاز عامى الثالث عشر ٠٠ وأقطن نفس المنزل الذى تقطنه أنت ــ المنزل الذى تقرأ فيه الآن هذه الاعترافات ، التى هى آخر نسمات حياتى ! ــ بل كان مسكنى يقع فى نفس الطابق الذى فيه مسكنك ، وفى مواجهته تماما٠٠

« لعلك الآن قد نسيتنا تماما ٠٠ نسيت الارملة المسكينة التى توفى زوجها الموظف البسيط ، والتى كانت ترتدى دائما ثياب الحداد ٠٠ وابنتها الصبية النحيلة التى كنتها حينذاك ٠٠

« نسيتنا ٠٠ بل لعلك لم تعرفنا قط ، فقد كنا نعيش منعزلتين ، شبه ضائعتين فى زحمة أفراد الطبقة المتوسطة

أمثالنا .. وأغلب الظن أنك لم تعرف اسمينا ، فان بابنا لم يكن يحمل لافتة نحاسية كالتى على بابك ، ولم يكن أحد يأتى لزيارتنا أو يسأل عنا ! .. انه دهر قد انقضى منذ ذلك التاريخ، خمسة أو ستة عشر عاما كاملة ، فلا عجب أن تكون قد نسيتنا تماما .. يا حبيبى ! أما أنا فلم أنس شيئا من أدق دقائق ذلك العهد السعيد ، بل انى لاذكر - كما لو كان بالامس - اليوم بل الساعة التى سمعت بك فيها لاول مرة ، ثم الساعة التى رأيتك فيها .. كيف لا وقد انفتحت أمامى يومئذ أبواب عالم جديد بهيج ؟

« دعنى يا حبيبى أقص عليك كل شىء منذ البداية .. وكل رجائي ألا تمل الانصات الى مدة ربع ساعة من الزمان ، أنا التى لم أمل حبك طيلة حياتي كلها !

*

« كان يحتل شقتك - قبل مجيئك - سكان أشرارمشاغبون، برغم فقرهم ، يغيظهم منا حرصنا على تجنبهم وعدم مخالطتهم فى شىء ! كان الاب سكيرا مدمنا ، لا يكف عن ضرب زوجته.. حتى لقد كناكثيرا ما نستيقظ من نومنا فى جوف الليل على أصوات التقاذف بالكراسى وتحطيم الاطباق . فضج سكان المنزل جميعا بالشكوى منهم ، وجعلنا نترقب بنافد الصبر يوم رحيلهم .. فلما حان ذلك اليوم أخيرا على أثر الحكم على الزوج بالسجن فى تهمة سرقة ، تنفسنا جميعا الصعداء .. وعلقت على واجهة البيت اللافتة التقليدية « للايجار » ، ثم لم تلبث أن نزعت ذات يوم ، وعلمنا من البواب أن الساكن الجديد كاتب أعزب يعيش وحده .. وفى تلك اللحظة سمعت باسمك ، لاول مرة !

« .. ثم جاء النقاشون والبناءون والنجارون لتجديد المسكن وطلاء الجدران باشراف خادمك الخاص ذى المظهر المهيب ،

الذى نم عن مهابتك ، وحرك فضولنا الى رؤية هذا القادم الجديد الذى يبذل من أجله كل ذلك العناء ، وتسبقه كل تلك الضجة والاستعدادات ! ثم عدت من مدرستى ذات عصر ، فاذا أمام الباب عربة الاثاث تفرغ منقولاتك .. فوقفت برهة أرقب الحمالين ينقلون ذخيرتك من الكتب ، والتماثيل الهندية والايطالية ، واللوحات الزيتية الملونة ... وغيرها من التحف الغريبة التى لم يقع بصرى على مثلها من قبل ..

« وطوال ذلك المساء ، لم أستطع منع نفسى من التفكير فيك ، وتصور كافة التفصيلات التى تتصل بشكلك ومظهرك وسنك .. وتولانى فضول غريب الى رؤية الرجل الذى يجمع بين الغنى والعلم ، ويعرف كل هذه اللغات ، ويقرأ كل تلك الكتب ، الامر الذى ولد فى شعورا غريبا باحترامك وتوقيرك .. فصورك خيالى فى صورة كهل متقدم في السن ، يضع نظارة على عينيه ، وتتدلى من ذقنه لحية طويلة بيضاء ـ مثل معلم الجغرافيا فى مدرستنا !ـ وان يكن خيالى قد أصر على تصورك أكثر منه وسامة وظرفا ورقة .. لست أدرى لماذا !؟

« .. وفى تلك الليلة ، وقبل أن أراك ، حلمت بك لاول مرة !

*

« وفى اليوم التالى حللت أنت فى مسكنك الجديد .. لكن الفرصة لم تواتنى لرؤيتك ، فتزايد فضولى وشوقى . وأخيرا وقع بصرى عليك فى اليوم الثالث .. وكم كانت دهشتى حين رأيتك على النقيض مما تصورت : شابا جميلا أنيقا ، تفيض قوة وحيوية ، وتصعد السلالم قفزا فى سترتك الرياضية البديعة ، وقبعتك فى يدك .. يطل من وجهك شباب الخامسة والعشرين !

« ومنذ تلك اللحظة تمثلت فيك شخصيتك المزدوجة: شخصية الشاب المرح المتوثب ، المحب للحياة والمغامرة .. ثم شخصية

الكاتب الوقور المشهور ، البارع فى فنه ، المخلص لواجبه ، المتمكن من ثقافته ٠٠

« ٠٠ ومن فورى أدركت بغريزة الانثى ـ برغم صغر سنى حينذاك ـ انك تعيش حياة ذات وجهين : وجه معرض للضوء يراه الناس جميعا ، ويعجبون به ٠٠ ووجه يغمره الظل فلا يراه ، أو يعرفه، سواك! ولعل هذا الوجه الآخر هو الذى جذبنى اليك منذ تلك الساعة ، فصرت لغزى الجذاب المحبوب ٠٠ اللغز الذى أنسانى مباهج صباى المحدودة ، وجعلنى أركز اهتمامى فيك ، بكل حماسة واندفاع فتاة الثالثة عشرة ٠ فأصبحت أنفق كل أوقات فراغى فى هواية واحدة : الطواف حول حياتك والوقوف على أتفه توافهها ٠٠ صرت أراقبك ، وأرقب عاداتك ، والناس الذين يزورونك ٠ وبدلا من أن يخفف ذلك من حدة فضولى ضاعفها أضعافا ، فان حياتك المزدوجة قد تمثلت أصدق تمثيل فى تنوع أولئك الزوار : كان منهم شبان من زملائك تضحك معهم وتمزح ، وتلاميذ من المعجبين بك تنصت لتقريظهم وتتبسط معهم ٠٠ ثم نساء أنيقات يأتين فى سيارات فاخرة ، وأحيانا فتيات من طالبات المدارس يعبرن عتبة بابك مسرعات مرتبكات ٠٠ وذات صباح ،وأنا خارجة الى المدرسة فى ساعة مبكرة ، رأيت امرأة تخفى وجهها بنقاب تبرح مسكنك ٠٠ وبرغم ذلك فان سذاجتى أعجزتنى عن فهم المعانى المنطوية خلف مثل هذه المشاهدات !

*

« ٠٠ ثم أتت الساعة التى جذبتفيها قلبى ـ بعد عقلى وفضولى ـ اليك !٠٠ كنت قد عدت مع احدى زميلات المدرسة من نزهة قريبة ، فوقفنا نتحدث ونثرثر أمام مدخل العمارة ٠٠ واذا بسيارة تقبل بأقصى سرعتها ثم تقف فجأة أمام الباب ، وتهبط منها أنت !٠٠ وبنشاطك المعهود ومشيتك السريعة

أقبلت ميمما شطر المدخل ٠٠ ولا أدرى أية قوة خفية دفعتنى فى تلك اللحظة الى أن أخف فأفتح لك الباب ، فتقابلت خطواتنا وكدنا نصطدم ، واذ ذاك رفعت الى عينيك بتلك النظرة الساخنة العذبة ، وابتسمت فى وجهى ابتسامة تفيض رقة وأنت تقول لى بصوت خال من كل كلفة : « أشكرك يا آنسة ٠٠ »

« ٠٠ ولم تزد على ذلك ، أيها الحبيب ٠٠ وبرغم هذا فاننى منذ تلك اللحظة ، منذ أحسست بدفء نظرتك العذبة الرقيقة يسرى فى كيانى ، شعرت أنك قد ملكت قلبى وروحى ! ولم أكن قد أدركت يومئذ — كما أدركت فيما بعد — ان نظرتك تلك التى تشع حرارة وحياة ، والتى تغلف الشخص الذى تنظر اليه ، وتجرده ، فى وقت معا — نظرة الرجل الذى ولد وفي دمه موهبة اغواء النساء ! — انما كنت تريقها على كل امرأة يقع عليها بصرك ، على كل عاملة فى محل تجارى تبيعك شيئا ، على كل خادمة تفتح لك الباب !٠٠ وان تلك النظرة عندك هى عمل غير ارادى ، يصدر عنك دون قصد أو تفكير ، بتأثير شغفك الغريزى بالنساء عموما !

« أدركت ذلك متأخرة ٠٠ أما يومئذ فأنى كان لى ادراكه ، وأنا الصبية الغريرة التى لم تكن قد جاوزت الثالثة عشرة ؟

« **وهكذا وجدت نفسى لحظتها وكأنى غرقت فى نهر من النار، يتملكنى يقين نشوان بأن تلك النظرة الرقيقة موجهة خصيصا لى ، ولى وحدى ! وكان ذلك كافيا لان يخلق من الصبية الغريرة امرأة ناضجة ٠٠ فى أقل من دقيقة !** ٠٠ وكأنما لحظت زميلتى عندئذ ما اعترانى فسألتنى فى اهتمام : « من يكون هذا الرجل؟» ٠٠ فأجبتها وقد قصدت عدم ذكر اسمك — الذى صار منذ تلك اللحظة الخالدة سرى الخاص ! — « انه أحـــد سكان المنزل ٠٠ »

لكنها ألحفت فى فضول خبيث : « ولماذا احمر وجهك حين نظر اليك ؟ » ٠٠ وزادتنى سخريتها اضطرابا ، فتصاعد الدم

الى وجهى باندفاع مضاعف هذه المرة ، وصحت أنتهرها وقد بدا الغيظ فى صوتى . ولكنها استغرقت فى الضحك الساخر المثير ، فأحسست بالدموع تتجمع فى عينى .. ولم أقو على مغالبة انفعالى ، فتركتها واندفعت أصعد السلم عدوا الى غرفتى!

*

« .. ومنذ تلك اللحظة أحببتك !.. أعلم ان نساء كثيرات قلن لك هذه الكلمة ، وأنت طفلهن المدلل ، ولكن صدقنى ان واحدة منهن لم تحببك مثلى ، كجارية ذليلة ، بل ككلبة وفية وبهذا الاخلاص والتفانى الذى أحببتك به أنا .. فانه لا شىء على الارض يعدل الحب الصامت المضحى ، المجرد من كل غاية أو مأرب ، الذى يشتعل فى وجدان الصبية المنطوية على نفسها .. انه شىء آخر لا يمت بصلة لحب المرأة الناضجة ، الحب الانانى المغرض الذى تمليه الشهوة العمياء !

« وهكذا صرت بالنسبة لى كل شىء ، كل حياتى .. لم تعد أفكارى تعرف كائنا سواك تحوم حوله فى اليقظة ، وتحلم به فى المنام .. وكان أبى قد فارق الدنيا منذ أعوام ، وكانت أمى فى حكم الغريبة عنى ، يشغلها عن أمرى حزنها المتصل وهموم الحياة ومتاعب الارملة التى ليس لها من موارد العيش غير معاش زوجها الراحل ... فأتاحت لى عزلتى وحياتى الموحشة فرصة الاستغراق فى حبك ، والشغف الجنونى بك !.. **وبدلنى الحب فتاة أخرى موفورة النشاط والتوثب .. وبعد أن كنت تلميذة مهملة ، متوسطة الاجتهاد ، صرت فجأة «الاولى» فى فصلى !.. وبدأت أهتم بمظهرى وأحاول دائما أن أبدو نظيفة أنيقة ، حتى اذا ما اتجه الى بصرك وجدتنى فى المظهر اللائق** .. وأذكر أن ثوب المدرسة كان به خرق مرفو خيل الى أنك لو رأيته لاحتقرتنى، فجعلت همى أن أخفيه بحقيبة كتبى وأنا أصعد السلم عدوا وقلبى يرتعد بين ضلوعى خشية أن تلحظه!.. ولست فى حاجة الى القول بأن خوفى ذاك كان وهميا،

لانك حتى فى المرات القليلة التى صادفتنى فيها على السلم لم تكن تكلف نفسك عناء النظر الى ٠٠ !

✤

« ◆ **وكان** فى باب شقتنا ثقب صغير يرى الناظر خلاله باب شقتك المواجهة ـ لا تضحك سخرية منى أيها الحبيب ، فليس يخجلنى البتة انى جعلت من ذلك الثقب عينا ثالثة لى أستكشف بواسطتها كل ما يجرى فى عالمى الجديد ، وأقضى ـ طيلة الشهور بل السنوات التالية ـ عصارى بأكملها جالسة وراء الباب متظاهرة بقراءة كتاب فى يدى ، أرقب ما يمكننى استطلاعه مما يجرى فى مسكنك ، وأعصابى مرهفة مشدودة كأوتار « الكمان » ٠٠ حتى عرفت كل شىء عنك : عاداتك ، وثيابك ، وزوارك ، المحببين منهم لدى والبغيضين فى نظرى ٠٠ وبالاختصار لم تكن تمضى على ساعة لا أرتكب فيها حماقة من أجلك ٠٠ ويا لها من حماقات !٠٠ كنت أقبل مقبض بابك الذى لمسته يدك ، وأجمع عقب السيجارة الذى ألقيته قبل دخولك ، كى أتنسم فيه رائحة شفتيك ٠٠ وأهبط الى الشارع فى أية ساعة من المساء ، متعللة لامى بشتى المعاذير ، كى أرى نافذة الغرفة المضاءة من مسكنك ، وما يبدو منها ، فأعيش لحظات فى الجو الذى تتنفسه ، وتعيش فيه !

« وفى الاسابيع التى كنت تغيب خلالها فى رحلاتك كانت حياتى تصير موحشة ميتة لا طعم لها ، وكنت ألقى عناء كبيرا وأنا أحاول جهدى تجنب نظرات أمى ، خشية أن تقرأ آية يأسى وأساى فى عينى اللتين ترطبهما الدموع ٠٠ !

« **أعلم أنى أقص عليك حماقات كان يجب أن أخجل منها ٠٠ لكنى لست خجلى ، فما كان حبى اياك يوما أطهر وأعف منه فى تلك الفترة من صباى ٠٠ وان الامر ليحوجنى الى ساعات بل أيام بأكملها لو أردت أن أقص عليك تفصيلات ودقائق حياتى**

فى تلك الآونة ، وكيف فنيت بجماع كيانى فيك ٠٠ أنت الذى لم تكن قد رأيت وجهي الا لماما ، فى المرات القليلة التى كنا نلتقى فيها على السلم فلا أجد مفرا من أن أمرق بجوارك مسرعة ورأسي منكس وبصرى الى الارض ، خوفا من أن تلتقى عيناى بنظرتك المحرقة ، أو تلحظ اللهب المشتعل فى وجنتى ٠٠!

« لا شك انك قد نسيت تلك السنوات الغابرة من حياتك ، فما قولك لو علمت انى لم أنس شيئا من أدق دقائقها التى أتاح لى شغفى بك أن أقف عليها فى حينها ، وأن بوسعى الآن أن أقضى فى سردها لك وتذكيرك بها أياما كاملة ، لولا خشيتى أن أضايقك وأجلب الى نفسك الملل !

*

« وسارت حياتى على هذا المنوال زمنا ، كنت فيه أحوم حول محيط حياتك عن كثب ،وأنتهز كل فرصة كى أنفذ منه الى جو بيتك الذى تعيش فيه ، والذى لا يفصلنى عنه سوى باب مقفل فى مواجهتى أراه صباح مساء ، ولا أستطيع عبور عتبته !٠٠ واستبدبى فضول قوى وشوق شديد الى رؤية مثواك الجميل، كى يستطيع خيالى أن يتابع حركاتك وسكناتك ، فأعيش بروحى معك ، وأقضى نهارى وليلى بصحبتك !٠٠ وأخيرا ، ذات يوم ، تحققت أمنيتى ٠٠ لمحت خادمك المسن أمام بابك ينوء بحمل سجادة ثقيلة فرغ من نفضها، فاستنجدت بكل جرأتى، وعرضت عليه أن أعاونه على حملها الى الداخل ٠٠ فقبل الرجل ، برغم دهشته ! **وهكذا أتيح لى أن أرى بيتك ، عالمك الخاص الذى طالما تصورته فى خيالى ٠ رأيت مكتبك الذى تجلس اليه حين تكتب ، تزينه آنية من البللور الازرق عامرة بالازهار ٠٠ ورأيت أثاث حجراتك ، وكتبك ، ولوحاتك الزيتية ٠٠ ألممت بكل ذلك فى نظرة واحدة خاطفة ، لكنها كانت كافية لان تمد وجدانى بزاد لا يفرغ من الاحلام العطرة ، فى يقظتى ومنامى ٠٠!**

« .. حتى أفقت فجأة من أحلامى على نبأ رهيب . كنت ـ كما ذكرت لك ـ قد نسيت كل شىء وكل شخص فى دنياى عداك ، نسيت حتى أمى .. فلم ألق بالا الى رجل كهل من أقربائها البعيدين ، اعتاد أن يتردد على البيت ويطيل البقاء . بل ان زياراته راقتنى حين صار يأخذ أمى الى المسرح ، فيتيح لى فرصة الخلوة بنفسى وبطيفك الحبيب .. وذات صباح نادتنى أمى الى غرفتها قائلة ان لديها أمرا هاما تود أن تحدثنى فيه . وكانت فى صوتها وهيئتها مسحة من الجد والصرامة خلعت قلبى .. فجعلت أسائل نفسى : « ترى هل تسرب الى نفسها الشك فى أمرى ، واستشفت حبى الكظيم ؟ لكن قلقى تراجع حين رأيتها هى ذاتها مضطربة حائرة ، وحين أقبلت على فقبلتنى فى رقة خالصة ، قبلة ، فأخرى ـ الامر الذى لم أعتده منها من قبل ! ـ ثم جذبتنى الى جوارها على الاريكة وبدأت تفضى الى بأمرها فى تردد وخجل واضحين : قالت ان قريبها ذاك الذى يتردد على البيت ـ وهو بدوره أرمل ـ قد طلب يدها للزواج ، وانها قبلت طلبه ، بسببى أنا على وجه الخصوص .. كى توفر لى معيشة أرغد !

«صعد الدم الى وجهى بقوة لدى سماعى النبأ ، ودق قلبى دقا شديدا هز كيانى كله . فقد جرى تفكيرى فورا اليك ، ودهمتنى فكرة مخيفة .. فسائلت أمى بصوت واجف : « ولكننا سنبقى فى هذا البيت .. أليس كذلك ؟ » .. فأجابتنى : « بل سننتقل الى بلدة (انسبروك) حيث يملك « فرديناند » متجرا كبيرا و « فيلا » أنيقة .. »

« ولم أسمع أكثر من ذلك ، فقد غامت عيناى .. وعلمت فيما بعد انه قد أغمى على !

*

« ◆ وفى الايام التالية حاولت عبثا أن أثنى أمى عن قرارها، لكن عجزى عن البوح بسرى الخفى جعل معارضتى فى السفر

تبدو محض عناد سخيف لا معنى له !٠٠ وراحت أمى تنتهز فترة غيابى فى المدرسة كل يوم فتحزم ما تنوى أخذه من أمتعتنا، وتبيع الباقى ٠٠ حتى صرت أعود الى البيت كل عصر ، فأجد شيئا جديدا قد اختفى من مكانه ٠ كانت منقولاتنا تنتزع من الشقة قطعة قطعة ، وكأن حياتى هى التى تنتزع !٠٠ حتى أمسيت ذات يوم ، فاذا الحمالون قد نقلوا كل شىء عدا سريرين تركا لمبيتنا تلك الليلة الاخيرة ، قبل رحيلنا فى الصباح الى (انسبروك) !

« فى تلك اللحظة أحسست ، بعزم أكيد ، اننى لن أقوى على الحياة بعيدا عنك ٠٠ **فلم تكد أمى تخرج لبعض أمرها حتى فتحت الباب واندفعت كما أنا ـ بثياب المدرسة ـ نحو بابك ، كأنما بتأثير قوة مغناطيسية ، وأنا لا أدرى ماذا أبغى أو أنوى أن أفعل ٠٠ هل أرتمى عند قدميك وأتوسل اليك أن تحتفظ بى عندك كخادمة، بل كجارية؟٠٠ أم أصارحك بحبى وأستعديك على أمى ؟ أم ماذا ؟** لا تسخر منى أيها الحبيب ، فلقد كنت فى حال من الاضطراب واليأس لا سبيل الى وصفها ، اقتضتنى جهدا هائلا كى أرفع ذراعى وأضغط على الجرس ٠٠ وبعد أن سمعت دقته ساد السكون من جديد ، بينما جمد الدم فى عروقى وكاد قلبى يتوقف عن الخفقان ، وأنا أعد نفسى للحظة الحرجة : لحظة فتح الباب وظهورك على عتبته !

« ٠٠ لكن الباب لم يفتح ، وأنت لم تظهر قط !٠٠ حتى خادمك كان قد خرج ولا شك ٠٠ فعدت أدراجى الى شـــقتنا الفارغة منهوكة القوى مضناة من التعب ، وكأنى قد سرت أميالا فى صحراء من الجليد الكثيف !٠٠ لكن خيبة أملى لم تثن عزمى واصرارى على رؤيتك والتحدث اليك قبل أن ينتزعونى من جوارك ٠٠ فما أن أوت أمى الى فراشها فى تلك الليلة القارسة من ليالى يناير حتى تسللت الى الردهة حيث قبعت وراء الباب أنتظر

أوبتك !٠٠ ولم يكن قد ترك بالشقة مقعد واحد ، فاضطررت أن أجلس على الارض ، على الخشب البارد الذى يجتاحه تيار من الهواء المثلوج المندفع من تحت الباب !٠٠ وبقيت على هذا الوضع الليلة بطولها ، أرتجف من البرد ، وليس على جسدى غير ثوب النوم ، فقد تعمدت ألا أتدثر بأى غطاء خشية أن يتطرق الدفء الى أطرافى - والنعاس الى عينى ! - فلا أحس بعودتك حين تعود !٠٠ ولكم قاسيت من ضراوة البرد طيلة تلك الليلة الليلاء ، وبرغم ذلك فقد انتظرتك ، وانتظرتك ٠٠ كما ينتظر الانسان قدره المحتوم !

« ٠٠ وأخيرا ، وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا فيما أذكر ، سمعت صوت باب العمارة الاسفل يفتح ، ثم صوت خطوات تصعد السلم ٠٠ فزايلني احساسى بالبرد فورا ، ودبت في جسدى حرارة مباغتة ٠٠ ففتحت بابى فى حذر وتأهبت للاندفاع نحوك والارتماء عند قدميك !٠٠ واقتربت الخطوات على السلم ، وسمعت همسات صوت غريب ، فأدنيت وجهى من الباب واجفة القلب : ترى هل كان القادم - بعد طول الانتظار - سواك ؟

« ٠٠ بل كنت أنت أيها الحبيب ٠٠ لكنك لم تكن وحدك !٠٠ لم ألبث أن سمعت ضحكة مرحة ناعمة ، وحفيف ثوب حريرى ٠٠ كنت عائدا الى بيتك وبصحبتك ٠٠ امرأة !

« ٠٠٠ رباه ، كيف بقيت على قيد الحياة بعد تلك الليلة ؟ لست أدرى ٠٠ كل ما أدريه اننى فى الساعة الثامنة من ذلك الصباح رحلت مع أمى الى (انسبروك) ، بعد أن فقدت كل قدرة على المقاومة ٠٠!

- ٣ -

« ◆ **لقد** مات طفلى ليلة أمس ، فعدت وحيدة كما كنت فى ماضى حياتى ٠٠ وغدا يأتى رجال لا أعرفهم ، ذوو أردية سوداء ،

يحملون صندوقا من الخشب ، يضعون فيه وحيدى الذى لم يكن لى سواه !٠٠ وقد يأتى أيضا أصدقاء يحملون طاقات من الزهر ، ولكن ما جدوى الزهر للميت ، ولى ٠٠ ماذا يستطيع الزهر أن يفعل ؟٠٠ ولسوف يحاولون تعزيتى ، ويقولون لى كلاما ، وكلاما كثيرا ٠٠ ولكن ماذا فى وسع الكلام أن يصنع لى ؟٠٠ هأنذى قد عدت وحيدة من جديد ، وليس أقسى على المرأة من أن تجد نفسها وحيدة بين الرجال ، كما وجدت نفسى خلال الاربعة والعشرين شهرا التى قضيتها فى (انسبروك) ـ بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من عمرى ـ والتى خلتها من فرط برمى بالحياة أربعة وعشرين قرنا أو تزيد !

« لست أزعم أن زوج أمى أساء يوما الى ، أو بخل على بعاطفة أو رعاية أو مال ، فقد كان سخيا معى فى كل ذلك ٠٠ وبالمثل كانت أمى ، التى كأنما أرادت أن تعوضنى عما سببته لى من ألم عجزت عن ادراك مبعثه ومرماه ٠٠

« كما لا أدعى اننى لم أجد من شباب انسبروك انعطافا وتوددا ، واحتفالا بأمرى ، فقد كانوا يحومون حولى ٠٠ فأنفرهم وأذودهم عنى فى اصرار عنيد! **لم أرد أن أعيش سعيدة بعيدا عنك، ففرضت على نفسى ـ باختيارى ـ حياة العزلة التامة والحرمان الشديد ٠ الحرمان من الثياب الجميلة ، والحفلات الساهرة ، والملاهى الممتعة ، والرحلات البهيجة ٠٠٠ وعشت فى حداد متصل ، لا أحيا الا من أجلك ولا أفكر الا فيك ، وفى ذكرياتى التافهة الخالدة عنك ٠٠ الذكريات التى من فرط ما استعدتها واجتررت لحظاتها الرائعة، أبقت صباى مشتعلا فى ذاكرتى بكل حرارته وانفعالاته !**

« أما هوايتى الوحيدة فى تلك الفترة فكانت قراءة كتبك ومؤلفاتك ٠ لم يكن يصدر واحد منها حتى أبادر الى اقتنائه ، وأعكف على التهام صفحاته بنهم المعجب الشغوف ، ثم أعيد

قراءته المرة بعد المرة ٠٠ حتى رسخت كتاباتك فى ذهنى بحروف بارزة لا تمحى ، بحيث أستطيع اليوم ـ بعد ثلاثة عشر عاما من ذلك التاريخ ـ أن أتلو فى كل مناسبة صفحات كاملة منها عن ظهر قلب ، كما يتلو العابد آيات انجيله وصلواته ٠٠ !

«ولكن لماذا أقص عليك ذلك كله ٠٠؟ لماذا أقصه على شخص لم يحس يوما بطرف منه ، ولم يدر بخلده قط ان هناك على بعد عشرات الاميال منه فتاة تطوى جوانحها على شغف خاسر به ، وتطوى عامها السابع عشر على حرمان تام من مباهج الحياة التى يتيحها لها شبابها المتفتح ٠٠ لا لسبب الا لانها تحبك ، ولا تطيق أن تحب سواك !٠٠ وترى حبها اياك فضيلة تستحق أن تثاب عليها ، وحبها غيرك جريمة لا تغتفر !

❖

« ٠٠ **ومضى** عام آخر ،وعاطفتى نحوك لم تتبدل ٠٠ لم يطرأ عليها غير تطور جثمانى يتفق ونضوج أنوثتى ويقظة غرائزى ٠٠ واذا الطفلة التى كان كل همها أن تحظى منك ٠٠ بنظرة ٠٠ قد صارت امرأة لا تطن فى رأسها غير فكرة واحدة ، ولا يشتعل كيانها بغير رغبة واحدة : أن تمنحك نفسها !

« ٠٠ وعلى هذه النية المبيتة رسمت خطتى ٠٠ تظاهرت بابائى أن أعيش عالة على زوج أمى الثرى ، برغم طيب نواياه فى هذا الصدد ٠ وأصررت على أن أكسب رزقى من أى عمل شريف فى العاصمة ٠٠٠ ونجحت فى فرض ارادتى هذه على أهلى ، وخاصة حين واجهتهم بالامر الواقع ، بعثورى على وظيفة محترمة فى أحد المتاجر الكبرى ٠٠ وهكذا شددت أخيرا رحالى الى (فينا) ٠٠٠ اليك !

« ترى هل أنا فى حاجة الى أن أعين لك أول مكان توجهت اليه بمجرد وصولى فينا ـ أخيرا ! ـ فى احدى أمسيات الخريف الملبدة بالغيوم ؟٠٠ لم أكد أهبط فى المحطة، حتى تركت حقيبتى



فى « مخزن الامانات » ، وركبت أول ترام صادفنى ٠٠ وكم بدا لى الترام بطيئا فى ذلك الحين. كان وقوفه فى كل محطة يثير أعصابى ! ثم هبطت منه أخيرا، فرحت أعدو فى اتجاه بيتك ـ بيتنا القديم ! ـ وحين لمحت نوافذك مضاءة وثب قلبى بين ضلوعى ، وعاودنى احساسى بالحياة ٠٠ برغم يقينى أن اقترابى من منزلك لم يقربنى من قلبك ، واننى حين كانت تفصل بين جسمينا الوديان والجبال والانهار لم أكن أبعد عن فكرك منى فى هذه الساعة حيث لا يفصل بينك وبين بريق عينى غير زجاج نافذتك !

« وقفت أتطلع الى النافذة المضيئة ، وأهمس لنفسى : « هاك وراء هذا الزجاج يجلس حبيبى !٠٠ منذ عامين وأنا أحلم بهذه اللحظة ، وها قد أتيح لى أن أعيشها ! » ٠٠ ولبثت واقفة تحت نافذتك شطرا كبيرا من تلك الليلة العذبة ، حتى رأيت نور غرفتك يطفأ ٠٠ وعندئذ فقط انطلقت كى أبحث عن المسكن الذى سيكون مأواى الجديد !

« ٠٠ وصرت أعود كل ليلة الى وقفتى ذاتها ٠٠ كان عملى يشغلنى حتى الساعة السادسة ، وعندئذ لا يكاد الباب الحديدى يهبط على واجهة المتجر حتى أنطلق الى موعدى الغرامى المحبب ٠٠ وأنا أمنى نفسى بأن أراك ولو مرة عن قرب ، فتصافح نظرتى طلعتك ٠٠

« لكن الاسبوع مضى على الوتيرة نفسها !

« .. وذات ليلة ، كنت أذرع نافذتك ببصرى ، واذا أنت تقبل نحوى عبر الطريق .. فأربكتنى المفاجأة ، وعدت فى لحظة طفلة الثالثة عشرة التى كنتها : صعد الدم الى وجنتى ساخنا يتدفق ، وبرغم لهفتى وشوقى الى رؤية عينيك ، أحنيت رأسى الى الارض ومرقت من جوارك مسرعة كصيد هارب !

« وللحال أدركنى الندم على حماقتى ، وخجلت من نفسى .. ففيم الفرار الارعن من وجهك ، وقد صح عزمى ووضح تصميمى على أن ألقاك وأعترض حياتك ، وأغدو موضع تقديرك واعزازك وحبك ، بعد سنوات طويلة من التفانى الصامت والحب المجهول الذى تغمره الظلال ؟

« وتكررت وقفتى تحت نافذتك ، برغم الثلوج المتساقطة والريح الصرصر العاتية . وتكررت خيبة أملى ، فقد مضى زمن بغير أن يلفتك أمرى أو تحس بوجودى وأنت تعبر بى . كنت أحيانا تخرج أو تدخل وبصحبتك زوارك .. وأحيانا تمر أمامى وذراعك معلقة بذراع امرأة ، فكان ينتابنى لون من الالم الجثمانى يمزق روحى ، ويوقظ غيرتى وكبريائى .. فأتخلف عن الحج اليك ليلة أقضيها فى عذاب مروع وحنين قاس ، يخمدان ثورة كرامتي فأعود فى الليلة التى تليها الى مكانى صاغرة ..!

« وعلى هذا المنوال قضيت أيامى أنتظر التفاتتك ، كما طالما انتظرتها فى الماضى ، وأنا واقفة بباب حياتك ، المغلق فى وجهى! .. حتى كانت ليلة لحظتنى فيها عينك . رأيتك قادما من بعيد ، فركزت كل ارادتى فى محاولة للصمود فى مكانى وعدم تجنب طريقك . وشاءت المصادفة أن سيارة نقل كبيرة كانت تفرغ حمولتها على جانب الطريق ، فاضطررت أنت أن تتفاداها بالمرور الى جوارى .. ووقعت عيناك دون قصد على ، فرأيت فيهما تلك النظرة التى اعتدت أن توجهها للنساء ، النظرة الرقيقة المعانقة ، والنفاذة في الوقت ذاته ، التي تخترق كل ما

يستر الجسد !٠٠ النظرة العريضة الآسرة التى جعلت من الطفلة التى كنتها فى صباى ، امرأة وعاشقة !

« ٠٠ وانقضت لحظة أو اثنتان ، صمد فيهما بصرى المفتون لنظرتك ، فلم يستطع ـ أو يشأ ـ منها خلاصا ٠٠ ثم ، مضيت أنت !٠٠ واشتد وجيب قلبى ، وعلى الرغم منى تباطأت خطاى. وحين أغرانى الفضول بالتلفت الى الخلف ٠٠ رأيتك قد توقفت عن سيرك والتفت بدورك الى الخلف ، نحوى !٠٠ لكنى أدركت من نظرتك المتسائلة المستغربة أنك ٠٠ لم تعرفنى !

« لم تعرفنى يومئذ ، كما لم تعرفنى قط ٠٠ أواه ، كيف يمكننى أن أصور لك ، أيها الحبيب ، خيبة الامل المريرة التى عانيتها فى تلك اللحظة ، والالم القاتل الذى أحدثه شعورى بأنى نكرة لا وجود لها فى نظرك ، وفى حياتك ٠٠ الالم الذى ظل يلاحقنى طيلة حياتى ، والذى أموت بحسرته ؟!٠٠٠ لقد أيقظتنى نظرتك فجأة من أحلامى ، أيقظتنى على حقيقة مفجعة : هى أن لا شىء فيك أو ذرة من كيانك تذكرنى ، ولا خيط لاية ذكرى يربط حياتك بحياتى ٠٠ الامر الذى كان صدمة قاسية لى ، ونذير شؤم أنبأ بمصيرى !

« لم تعرفنى اذن ٠٠ وحين التقينا مرة أخرى بعد يومين فى نفس المكان ، وغلفتنى عيناك بنظرة دافئة فيها شىء من الالفة ، لم يكن ذلك لانك عرفت فى جارتك الصبية التى أشعلت قلبها وأنوثتها ، والتى أحبتك منذ سنوات ، وانما لانك تعرفت فى على الحسناء الناضجة التى اعترضت طريقك منذ يومين ٠٠ فرمقتنى بنظرة دهشة ، ورفت على جانب فمك ابتسامة خفيفة وأنت تمر بقربى متباطىء الخطى ٠٠ واذ ذاك استولى على فرح طاغ ، وعرتنى رجفة الانفعال وأنا أسائل نفسى : « ترى هل سيبادرنى بالكلام ؟ » ٠٠ فقد أحسست للمرة الاولى انك شعرت بوجودي ٠٠ فلم يكن مني الا أن تباطأت في سيري ،

وجعل قلبى يدق صدرى بشدة ، فى انتظار التصرف التالى من جانبك !.. وفجأة ، ودون أن أتلفت الى الخلف ، شعرت انك تتبعنى ، واننى للمرة الاولى سوف أسمع صوتك الحبيب يكلمنى .. ومرت ثوان خيل الى فيها من شدة وعنف ضربات قلبى اننى سأخر مصعوقة ، أو تتداعى ساقاى تحتى فأعجز عن المسير!.. وفى هذه الاثناء كنت قد حاذيتنى ، وبادأتنى بالحديث بطريقتك اللبقة ، كما لو كنا أصدقاء قدامى ، فى بساطة يسرت على أن أجيبك !.. ثم سرنا جنبا الى جنب حتى نهاية الطريق، وسألتنى اذا كنت أقبل أن أتناول العشاء معك .. فقبلت ، وهل كان فى وسعى غير أن أقبل ؟!

« **.. وتناولنا العشاء معا فى مطعم صغير ، لا أحسبك تذكره الآن .. فما كان الامر بالنسبة لك أكثر من مغامرة عادية من مئات المغامرات والسهرات .. وما كنت أنا فى نظرك غير امرأة عابرة تلقى ظلها على حياتك ليلة ثم تمضى ، كما مضت قبلها وبعدها عشرات !.. وطيلة السهرة حرصت أنا على أن أقل من الكلام ، كى لا أفسد متعة القرب منك والانصات اليك، ولا أضيع لحظة واحدة من لحظات سعادتى الدافقة فى سؤال سخيف أو عبارة حمقاء !..** واستجبت أنت ببراعة لما علقت على لقائك من آمال ، فأغرقتنى فى فيض من عذوبتك وسحر شخصيتك وطلاوة حديثك .. ثم نهضنا فى ساعة متأخرة ، فسألتنى ونحن ندلف الى الطريق عما اذا كنت لا أمانع فى أن أقضى معك مزيدا من الوقت فى الثرثرة .. فى بيتك !.. فبذلت جهدا كى أقمع رغبتى فى مصارحتك بأنى تحت تصرفك ، واكتفيت بالقول : « بكل سرور » .. قلتها ببساطة وحسن قبول ، كأنها أمر طبيعى .. لكنني لمحت أن سرعة استجابتى قد أدهشتك بل صدمتك ، صدمة لم أفهم سرها وباعثها الا فيما بعد ، حين تمرست بتجارب الحياة وأدركت ان المرأة حتي وان وطنت

نفسها أو تحرقت شوقا للاذعان لرجل ، لا تفعل ذلك عادة الا بعد أن تغلف نيتهـــا المبيتة بكثير من مظاهر الخوف والاباء والتمنع ، كى ترضى غرورها فتستدر من الرجل ســيلا من التضرعات ، والاكاذيب ، والوعود ، والايمان المغلظة ٠٠ الخ لا يستثنى من ذلك الا طبقة محترفات الرذيلة وفتيات الهوى ، أو فئة المراهقات الغريرات ٠٠ لكنى لم أكن من هذه أو تلك ، وانما كان أمرى أشبه بانفجار لامنية طال كبتها سنوات !

« اذن فقد صدمك تصرفى ، ثم تحولت الصدمة فى نفسك الى اهتمام بأمرى ، وفضول الى معرفة حل لمعميات هذا اللغز الغامض، فجعلت تتفرس فيأثناء سيرنا وتختبرنيخلال أحاديثنا بشتى أساليب التحليل النفسى ٠٠ لكن سرى استعصى عليك ، وكان خليقا أن يستعصى ، ففضلا عن شذوذ هذا السر كنت قد أخذت للامر حذرى، فتحفظت فى اجاباتى ٠٠ فضلت أن تحسبنى بلهاء ، على أن أبوح لك بحبى !

« ٠٠ وصعدنا الى مسكنك ! واعذرنى أيها الحبيب اذا قلت لك انه ليس فى مقدورك أن تفهم وتقدر شعورى ساعتئذ ، وأنا أدخل البيت المألوف لدى ، وأصعد السلم التى ولد على درجاتها، وانقضى ، صباى ٠٠ ونما وترعرع هواى !٠٠ أو أن تتصور الانفعال السعيد المجنون ، المدمر ، بل القتـــال ، الذى كنت فريسته فى تلك اللحظات ٠٠ والذى لا أستطيع حتى الآن أن أذكره الا ويفيض دمعى ، حتى يغيض !

« يكفيك أن تعلم أن كل شىء وقعت عليه عيناى كان يرمز لطفولتى ويفاعتى ، وللعاطفة المشتعلة فى منذ سنوات : الباب الذى انتظرتك أمامه ألف مرة ٠٠ السلم الذى كنت أترقب وقع خطاك عليه ساعات ، والذى التقينا لقاءنا الاول ، على درجاته ٠٠ السجادة الصغيرة التى أمام الباب ، التى كنت أجثو عليها أحيانا كى أتجسس حركاتك وسكناتك من ثقب المفتاح!٠٠ كل ذكريات

صباى وهواى تجد فى هذا الجو عشها الامين ٠٠ كل حياتى تتجمع وتنبع من هذا الحيز المحدود ! ٠٠ فلا عجب ان اجتاحت كيانى عاصفة جامحة وأنا أجتاز عتبة الدار: هذا هو حلمى بأكمله قد تحقق ٠٠ هأنذا بصحبتك أدخل بيتك ، بيتنا !٠٠ ان حياتى ووجودى لم يكونا من قبل الا حقيقة حزينة ، والدنيا لم تكن الا موحشة كئيبة ، ولكن ٠٠ هاهو العالم المسحور الذى عشت أحلم به ينفتح أمامى، ها أنا أطأ مملكة « علاء الدين ! » ٠٠ تصورآلاف المرات التى تمنيت فيها أن أعبر هذا الباب ، وعندئذ تستطيع أن تقدر ، أيها الحبيب ، كم من أعوام حياتى تركز فى تلك اللحظة الخاطفة التى اجتزت فيها عتبة بابك ٠٠ بخطى مترنحة!

*

« ٠٠ ومكثت عندك الليلة كلها ، وتبينت أنت أن رجلا قبلك لم يلمسنى أو يتنسم عبير جسدى ، أو حتى يراه !٠٠ وكان هذا الاكتشاف صدمة لك أشد من الاولى ٠٠ وهل كان بوسعك أن تتوقع مفاجأة كهذه بعد أن منحتك نفسى بلا أدنى مقاومة ، وبغير أن ألجأ الى التظاهر الزائف بالطهر والعفة ؟٠٠ لقد خشيت أن يرشدك تمنعى - لو فعلت - الى سر حبى الكظيم لك، الذى كان خليقا أن يخيفك ٠٠ أنت الذى تريد أن تتذوق جميع متع الدنيا بغير أن تدفع الثمن ، وبلا أدنى تضحية، أو مسئولية! **ولا تفهمن من قولى لك الآن انى كنت عذراء حين أذعنت لك ، اننى أتهمك باغوائى أو خداعى والايقاع بى ٠٠ فقد سعيت اليك بنفسى وارتميت بين ذراعيك عامدة بمحض رغبتى !٠٠ كلا ، لن أتهمك قط بشىء من هذا ، بل انى على العكس سوف أشكر لك دائما انك قد أتحت لى تلك الليلة المترعة بالهناء !٠٠ وكيف أنسى أننى حين فتحت عينى فى الظلام وشعرت بك الى جوارى، أدهشنى أن رأسى لم يصطدم بالنجوم ٠٠ من فرط ما بدت السماء قريبة منى !**

« وفى الصباح نهضت مبكرة لاصل الى مقر عملى فى الموعد المناسب ، ولانجو بنفسى قبل قدوم خادمك العجوز ، الذى قد يعرفنى !٠٠ وحين ارتديت ثيابى ومددت يدى لتوديعك ، أخذتنى بين ذراعيك ، ورمقتنى بنظرة طويلة ٠ ألأن ذكرى بعيدة غامضة تحركت فى أعماقك ؟ أم اننى بدوت فى نظرك جميلة فأردت أن تتملى بحسنى النضير ؟٠٠ سواء كان الامر هذا أو ذاك فقد رشقتنى بقبلة على فمى ، ثم تناولت من آنية الزهر الزرقاء التى على مكتبك أربع وردات بيض مددت بها يدك الى ، للذكرى !٠٠ ولكم لثمت تلك الورود ولهانة فيما بعد ، كلما هزنى الشوق اليك !

« ٠٠ وقبيل خروجى اتفقنا على لقاء آخر ٠٠ وكان بدوره رائعا كالاول ٠ ثم منحتنى ليلة ثالثة أيضا ، وفى نهايتها قلت لى انك مزمع على السفر فى رحلة سوف تستغرق وقتا، ووعدتنى أن تتصل بى بمجرد عودتك ، بعنوانى « بشباك البريد » ٠٠ ثم شيعتنى بتذكارك المألوف : ورودك البيضاء !

*

« ٠٠ ومضى شهران ، لم أغفل طوالهما يوما عن التردد على « شباك البريد » ٠٠ ولكن لماذا أصف لك عذاب الانتظار ، واليأس؟٠٠ لست أتهمك بشىء، فأنا أحبك كما أنت، ببوهيميتك ونسيانك وجحودك !٠٠ أحبك هكذا ولا أحبك على صورة سواها ٠٠ أحبك كما كنت دائما ، وكما أنت الآن !٠٠ وبالاختصار ، فقد عدت من رحلتك يوما ــ كما دلتنى نوافذك المضاءة ــ وانقضى على عودتك زمن ، ولم تكتب لى ! لم تكتب لى سطرا واحدا ٠٠ وهأنذا فى لحظاتى الاخيرة لا أحتفظ بكلمة واحدة بخطك ، أنت الذى وهبتك حياتى كلها !

- ٤ -

« **لقد** مات ابنى ليلة أمس ٠٠ ابنى ، وابنك أيها الحبيب ! ٠٠ ابن احدى تلك الليالى الثلاث – وأقسم لك ! – والانسان لا يكذب وهو على عتبة القبر !

« انه ابنك لان رجلا آخر لم يلمسنى منذ اللحظة التى أبحتك فيها نفسى ، حتى اللحظة التى مزقت فيها جسدى آلام الوضع ٠٠ فقد ظل جسدى طيلة تلك الفترة أشبه بحرم مقدس فى عينى ٠٠!

« ولعل تساؤلا ملحا يفرض نفســه عليك الآن ، فيجعلك فريسة لكثير من الدهشة والحيرة والشك : لماذا أخفيت عنك طيلة تلك السنوات نبأ هذا الطفل ، ولماذا أكاشفك به اليوم فقط ، وهو فى طريقه الى القبر ٠٠ الى حيث لن يتاح لك أن تراه أو تؤمن بوجوده قط ؟!٠٠ ولكن ، هبنى كاشفتك بالامر فى حينه ، فهل كنت تصدق ، وهلا كنت تتصور انى أحاول أن ألصق بك ابوة طفل ليس منك ، كى أبتز بعض مالك الوفير ؟٠٠ بل كيف كنت لاطالب عقلك بأن يستسيغ قصة امرأة غريبة عنك ، تزعم لك أنها عاشت طيلة أشهر الحمل مثالا من أمثلة الوفاء والاخلاص لك ، أنت الذى كنت فى تصرفك نحوها مثالا للغدر والجحود ؟

« **اذن فقد كانت مكاشفتى لك بالحقيقة من البداية خليقة بأن تزرع فى نفسك بذرة الشك فى أمرى ٠٠ وتلقى بيننا ظلالا قاتمة من عدم الثقة ، الشىء الذى حرصت على تجنبه بأى ثمن! ٠٠ فضلا عما كان علمك بمولد الطفل ليسببه لك من شعور مفاجىء بالمسؤولية المزدوجة ، وبالرابطة الاجبارية الابدية بينك وبينى ، فى الوقت الذى كنت أعلم فيه انك تضيق بالعبئين ، ولا ترى فى الحب الا نوعا من التنفس ، لا يحلو الا فى جــو الحرية المطلقة ، بغير أثقال أو قيود !**٠٠ فهل كان يمكن أن ترى نفسك بغتة مثقلا بى وبطفلى ولا تكرهنى ، ولو على الرغم منك ،

ولو لبضع ساعات ، أو حتى لحظات ؟٠٠ وهل كان يمكن أن يقبل كبريائى منك هذا الشعور بالكراهية ، أو الحقد ، أو الندم على ما كان بيننا ؟٠٠ حاشاى ، فقدكانت كل مناى أن يخطرطيفي فى رأسك طيلة العمر بغير أن تظلله أية سحابة أو تشوبه أية شائبة ٠٠ ففضلت أن أتحمل العبء كله وحدى على أن أغدو حملا ثقيلا على كاهلك ، كيما أظل على الدوام المرأة الوحيدة بين محظياتك التى تذكرها بالحب الخالص والشكر الجزيل ، أو — فى القليل — عرفان الجميل !

« لكن الحقيقة المفجعة — أيها الحبيب — انك لم تذكرنى على الاطلاق ، نسيتنى تماما !٠٠ لست أقول هذا لاتهمك بشىء ، فما قصدت الى هذا ٠٠ وانما لارجوك أن تغفر لى ما قد يقطر من قلمى فى بعض المواضع من مرارة ، فان ابنى — ابننا — ما يزال راقدا أمامى تحت أضواء الشموع الخابية ٠٠ جسدا هامدا !

« ابنى الذى كان بالنسبة لى كل شىء ، كل الحياة ، فقد جاء منك ، وصار أنت !٠٠ صحيح انه لم يصر مثلك سعيدا مترفا لا يعبأ بشىء أو يبالى بأحد ، لكنه أخذ منك ماكفانى كى أعتز به، وأحرص عليه ٠٠ بل لقد حملته فخورة بأنى انما أحملك فى رحمى ، حبيسا فى جسدى ، تستمد الحياة من حياتى ، وأحسستك تتنفس من عروقى وتحيا وتكبر فى داخلى ٠٠!

*

« ٠٠ لكن سعادتى بحملى لم تدم غير شهور ٠٠ أعقبتها شهور أخرى من العذاب والآلام ،والاشمئزازمن ضعة الرجال ٠٠ فقد غدا مركزى حرجا خلال النصف الثانى من فترة الحمل ، وأوشك عارى أن يبرز للعيان ، فاضطررت للانقطاع عن عملى خشية أن يشى بى رؤسائى لدى أهلى !٠٠ وترتب على تعطلى نضوب مواردى المالية ، فى الوقت الذى جبنت فيه عن طلب المال من أمى ، فلجأت الى بيع بضع الحلى التى كنت أملكها ، كى أنفق

على نفسى خلال الشهور الاخيرة ٠٠ ثم ازدادت الحالة تفاقما حين رزقتنى الاقدار بغسالة سرقت ما تبقى من نقودى قبل موعد الوضع بأسبوع ، مما أجبرنى على الالتجاء الى « مستوصف » خيرى للولادة كى أضع حملى فيه ٠٠ وهناك ، حيث لا تلجأ الا أفقر وأتعس طبقة من النسوة الساقطات ٠٠ وحيث يتجسم البؤس المفجع بأبشع مآسيه ٠٠ هناك ، رأى ابنك النور ٠٠ لاول مرة ! ٠٠ وهناك تفتحت عيناه على عنبر قذر ينضح بروائح الكلوروفورم والدم ، ويضج بصيحات الالم وأنين المخاض ٠٠ وكل ما فرضت على الفاقة أن أقاسيه ، من صنوف المذلة والهوان، وعبث الاطباء الشبان الذين كان أكثرهم يقبل على المرأة العزلاء منا ، التى بلا حول ولا طول ، فيرفع عنها غطاءها الابيض فى زراية وسخرية مرة ، كى يتحسس جسدها العارى ٠٠ متعللا بشتى المعاذير الطبية الزائفة !٠٠ الى آخر ما لاقيت من الحركات والنظرات والالفاظ المهينة التى تذبح الطهر الانسانى وتلغ فى دمه !

« أواه !٠٠ ان الزوجات اللاتى يضعن لازواجهن أطفالا فى دورهن الخاصة ، فى ظل أوفر ضروب العنـاية والرعاية ، يستحيل أن يقدرن مدى المذلة التى تقاسيها المرأة التى تضع طفلها وهى وحيدة محرومة من حماية الرجل والاسرة ٠٠ ! ٠٠ بل اننى ـ حتى اليوم ـ لا أصادف ، وأنا أقرأ صحيفة أو كتابا، كلمة «الجحيم» الا وتقفز الى رأسى بغتة صورة ذلك العنبر القذر ٠٠ بروائحه الكريهة ، وأنات نسائه وصرخاتهن ، وضحكاتهن المبتذلة ٠٠ فينتفض شعر رأسى هلعا واشمئزازا !

« اغفر لى هذا الحديث المقبض، أيها الحبيب٠٠ اغفره لى ، فانها المرة الوحيدة التى أفضى اليك فيها بذات نفسى ٠٠ ولن أفعل ذلك قط بعد الآن !٠٠ لقد لزمت الصمت أحد عشر عاما لم أنبس فيها بحرف ، وبعد قليل أغدو خرساء ، الى الابد !٠٠

فهل أقل من أن أطلق من أعماقي هذه الصرخة الحبيسة فى صدرى منذ بعيد ، فأقص عليك مأساتى وما كلفنى هذا الطفل ، الذى كان عزائى وسلواى فى دنياى ٠٠ فصار بعد موته بلواى ؟٠٠ لقد طالما أغرقت ذكريات الماضى وآلامه فى مقلتيه البراقتين ، وابتسامته الحلوة ، وصوته العذب ، ونسيت فى غمرة سعادته شقائى !٠٠ أما الآن ، وقد مات، فقد استيقظت من جديد مذلتى، وبعث من القبر هوانى ٠٠ فلم أعد أحس بغير حاجتى الى أن ألفظ سرى الدفين وأطلق صرختى الحبيسة ، ولو مرة ، مرة واحدة ٠٠ ولا غيرها !

- ٥ -

« ◆ **لقد** مات ابننا ٠٠ ابنك الذى لم تره قط ، حتى ولا فى لقاء عابر بمحض المصادفة !٠٠ ما من مرة التقى بصرك بعينى هذا المخلوق الصغير اللطيف الذى من صلبك ، فقد حرصت منذ ولد على أن أتجنبك ، وأبتعد بنفسى وبه عن طريقك ٠ كان حبى الجارف لك قد غدا أقل ايلاما ، وأقل حرارة ٠٠ فلم أشأ أن أقسم قلبى بينك وبينه ٠٠ فضلت أن أكرس نفسى لاحدكما ، ورأيتك أنت سعيدا مرفها فى غنى عنى ، وهو ضعيف أعزل فى حاجة الى ، كى أطعمه وأضمه بين ذراعى وأغرقه بالقبلات ٠٠ فكرست حياتى وكيانى ووجودى له ٠ وعندئذ أحسست انى قد تحررت ونجوت من القلق الخاسر الذى بذرته فى روحى ، وانعطفت نحو هذه « النسخة » المصغرة منك ، التى تخصنى وحدى !٠٠ فلم تعد عاطفتى تجذبنى نحو باب بيتك الا فيما ندر ، وندر جدا ٠ ولم تعد صلتى بك تجاوز شيئا واحدا : باقة من الورد الابيض ـ كالذى أهديتنيه فى أعقاب ليلة غرامنا الاولى ـ صرت أرسلها لك بانتظام كل عام ، فى يوم عيد ميلادك! **٠٠ ترى ألم تتساءل قط طيلة السنوات العشر أو الاحدى عشرة، عمن يكون مرسلها ؟٠٠ أو لم تذكر يوما تلك المرأة التى أهديتها**

ذات صباح ورودا مماثلة ؟٠٠ لست أعرف جوابك ، ولن أعرفه ٠٠ وبرغم ذلك فقد كان يكفيني أن أرسل اليك الورود فى كل مرة سرا ، فأحيى مرة كل عام ذكرى تلك اللحظة الخالدة !

« انك لم تر قط ابننا الصغير التعس ٠٠ ولم تر ابتسامته الحلوة ، حين كانت تختلج أهدابه فى رقة ، وتلقى عيناه السوداوان الذكيتان ــ عيناك ــ على وعلى الدنيا بأسرها نظرتهما المضيئة المرحة !٠٠ آه ، لكم كان مرحا ، وجذابا ، كأنما قد أخذ عنك كل سحرك ، كما أخذ حدة خيالك ٠ كان يستطيع أن يقضى ساعات بأكملها يلهو بدمية خشبية ، فى حماس ولذة ، كما تفعل أنت حين تجد متعتك فى أن تلهو مع الحياة ٠٠ وفجأة أراه ينقلب جادا فيعكف على كتبه وواجباته !

*

«٠٠ وكان الشبه بينه وبينك يزداد كل يوم ، ويتقارب ، فأزداد أنا به شغفا وحبا ٠ وسرعان ما تعلم الفرنسية وصار يثرثر بها فى طلاقة الببغاء ٠٠ وكانت كراساته المدرسية أكثر كراسات الفصل نظافة وترتيبا ٠ وبقدر أناقته فى أوراقه كان أنيقا فى ثيابه ــ فى سترته القطيفة السوداء أو بذلته « البحارى » البيضاء ــ فكان أينما ذهب يلفت الانظار بأناقته و « وقاره » !٠٠ وحين كنت أمر به على شاطىء « جرادو » كان النساء يتوقفن فى سيرهن كى يقبلن شعره الاشقر الطويل ٠٠ وحين ينزلق على الجليد فوق قمة « سمرنج » تتجه اليه الابصار فى اعجاب شديد ٠٠ فلكم كان وسيما ، رقيقا ، عذبا !٠٠ وعندما ألحقته فى العام الماضى بالقسم الداخلى التابع لكلية (مارى تيريز) ، بدا فى سترته الرسمية وهو يحمل سيفه الصغير ، أشبه بفارس يافع من فرسان القرن الثامن عشر !٠٠ أما الآن ، فلم يبق منه غير جسد هامد ، وشفاه شاحبة ، ويدين مضمومتين فوق صدره ٠٠!

« ولعلك تتساءل حائرا : كيف استطعت أن أكفل له كل هذا الترف ، والتعليم الراقى والتربية الكاملة ٠٠ وماذا فعلت كى أتيح له العيش الرغيد فى مستوى أطفال الطبقة الرفيعة من المترفين ؟ **وجوابا على هذا دعنى أصارحك بالحقيقة الكاملة أيها الحبيب ، من قلب الظلمات ٠٠ فلست خجلى ، وسأذكر لك كل شىء ، ولكن لا تفزع : لقد بعت نفسى أيها الحبيب !٠٠ لم أغد ممن يطلق عليهن فتيات الطريق أو « العاهرات » بالمعنى الدقيق، لكننى ٠٠ بعت نفسى !٠٠ وصار لى أصدقاء أثرياء ، وعشاق متخمون بالمال ٠٠ كنت فى البداية أبحث عنهم ، فأمسوا فيما بعد هم الذين يبحثون عنى ، ويطاردوننى ، فلقد كنت ـ ولعلك لا تذكر ! ـ بارعة الجمال !٠٠ وكان كل رجل أبيحه نفسى يعلق بى ويتدله فى هواى ٠ الجميع أحبونى ، الجميع عداك أنت وحدك ٠٠ أواه يا حبيبى !**

« ترى هل تحتقرنى الآن ، بعد أن اعترفت لك اننى قد احترفت الهوى ؟٠٠ كلا ، لن تحتقرنى ، انى واثقة من ذلك ٠٠ واثقة من أنك تفهم الآن كل شىء ، وتقدر انى اذا كنت قد فعلت ذلك، فانما فعلته من أجل شخصك الآخر، من أجل ابنك!٠٠ كنت قد لمست بنفسى فى مستوصف الولادة مدى مافى الفقر من مذلة، واقتنعت بأن الفقير فى دنيانا هو دائما الضحية ، التى تنتهك حرمتها وتداس تحت الاقدام ٠٠ فلم أقبل ـ بأى ثمن ـ أن يشب ابنك الوسيم ، الرقيق كالزهرة ، فى الاوحال الآسنة ٠٠ يزامل صبية الشوارع ، ويتنفس هواء الاحياء الفقيرة ، ويعتاد فمه الحلو لغة الازقة ، ويتلطخ جسمه الناصع بقاذورات المستنقعات ٠٠ وانما أردته أن يستمتع بكل ما فى الدنيا من ثراء وترف ، ويعيش ويكبر فى نفس المستوى الذى تعيش فيه أنت !

« هذا هو السبب ، كل السبب ، الذى من أجله احترفت الهوى ، بغير أن أحس انى أقدم على تضحية ما ٠٠ فان ما اصطلح

الناس على تسميته بالشرف أو العار لم يكن له أدنى وجود فى نظرى ، ما دام الرجل الذى وهبته ذاتى لا يحبنى !٠٠ وهكذا صارت قبلات الرجال وعناقهم ، بل وأحر عواطفهم نحوى ، شيئا سطحيا لا يمس شغاف قلبى أو يترك أثرا فى حياتى ٠٠ وان كنت قد شعرت نحو بعضهم بالتقدير العميق الممزوج بالاشفاق عليهم من أجل حبهم اليائس ، غير المتبادل ، الذى كنت ضحيته من قبلهم !

« وقدكانوا جميعا نبلاء في حبهم اياى، يحترموننى ويدللوننى بأكثر مما أستحق ، وخاصة نبيل منهم يحمل لقب « كونت » ، أرمل ، عجوز ، حفيت قدماه وهو يسعى لالحاق الصبى اليتيم ، ابنك ، بكلية سانت تيريز ! ٠٠ وكان يكن لى حبا شبه أبوى ، وطلب يدى للزواج ثلاث أو أربع مرات ، قابلتها بالرفض ٠٠ فى حين انى لو قبلت لكنت قد أصبحت اليوم « كونتة » تملك قصرا فاخرا فى «التيرول»، وغدا للصبى أب رقيق يعوله ويمنحه اسمه، ولى زوج طيب وقور يرعانى٠٠الخ ـ لكنى رفضت ، برغم الحاحه الشديد المتوالى ، وبرغم ما سببه له الرفض من ألم نفسانى !

« قد أكون ارتكبت برفضى خطأ جسيما وحماقة كبرى ٠٠ ولكن لماذا لا أبوح لك بسر تصرفى ذاك ؟٠٠ لم أشأ أن أقيد نفسى برباط دائم مع رجل ، كى أظـل دوما تحت تصرفك ، يحدونى ذلك الامل الصبيانى الذى يكمن فى أعمق أعماق قلبى ويسيطر على عقلى الباطن : أن تذكرنى يوما ، وتشتاق الى ، فتستدعينى اليك مرة أخرى ، ولو لساعة واحدة من الزمان ٠٠ فأجد نفسى حرة ، فى مقدورى أن ألبى النداء ! ٠٠ وفى سبيل متعة هذه الساعة المنتظرة رفضت كل عرض ، فى انتظار أى عرض يأتى منك ! ٠٠ وهل كانت حياتى بأكملها منذ الطفولة غير انتظار مستمر طويل ، لارادتك ؟!

*

« .. وقد حلت تلك الساعة فعلا ، ذات ليلة ، أغلب ظنى انك لا تذكرها الآن أيها الحبيب .. بل انك حتى فى حينها لم تعرفنى ، لم تعرفنى يومئذ ولا فى أى يوم آخر . لم تعرفنى قط، كعهدى بك دائما !.. كنت قد اعتدت أن أراك مصادفة بين الحين والحين ، فى المسارح ، وصالات الموسيقى ، أو فى الطريق .. وفى كل مرة كان قلبى يثب بين ضلوعى فرحا ، لكنك كنت تمر بى مر الكرام ، بغير أن تلحظنى .. سيما وانى كنت قد صرت مخلوقة أخرى ، فان الطفلة المجفلة غدت امرأة ، وامرأة جميلة ، يحف بها المعجبون .. فكيف كان يتيسر لك أن تتعرف فى على تلك الفتاة الخجولة التى رأيتهـا على ضوء مخدعك الشاحب ، ذات ليلة ؟ .. وأحيانا أخرى كنت أخرج فى صحبة رجل يعرفك، فيحييك حين يراك فى مكان عام ، وترد أنت تحيته ، ثم ترفع عينيك الى .. فاذا فيهما نظرة اعجاب صرفة تنطق بأنك لم تعرفنى !.. ولكم أشعرنى نسيانك هذا بالضآلة والمذلة ، وخاصة ذات يوم ، لن أنساه ! كنت مع صديق لى فى مقصورة بدار الاوبرا ، وكنت أنت فى المقصورة المجاورة .. ثم رفعت الستار وأطفئت الانوار ، فلم أعـد أراك ، لكنى أحسست بأنفاسك تتردد بالقرب منى كما أحسستها فى ليالى غرامنا !.. وكنت تريح يدك فوق الحاجز المكسو بالقطيفة الذى يفصل بين مقصورتينا ، فتملكتنى رغبة طاغية فى أن أنحنى على تلك اليد الحبيبة التى استمرأت يوما ضماتها ، كى أطبع عليها .. قبلة !.. وكانت الموسيقى من حولى تشيع أنغامها العذبة المترقرقة ، فتزيد رغبتى ضراما وضراوة.. **حتى اضطررت الى الاستنجاد بكل ما فى كيانى من ارادة وتعقل كى أسيطر على أعصابى فلا أقدم على تلك النزوة الحمقاء ، برغم شدة القوة التى كانت تجذب شفتى نحو يدك الحبيبة !.. حتى انتهى الفصل**

الاول فطلبت من مرافقى أن نعود الى البيت ، بعد أن عجزت عن احتمال رؤيتك الى جانبى ، قريبا منى ٠٠ وغريبا عنى !

« ٠٠ أقول ان الساعة التى طال انتظارى اياها حلت أخيرا ٠٠ مرة أخرى ، وأخيرة ٠٠ وكان ذلك منذ عام تماما ، غداة يوم عيد ميلادك ٠ وكنت قد خرجت يوم عيدك فى الصباح الباكر فاشتريت باقة الازهار البيضاء التى اعتدت ارسالها اليك كل عام ـ تذكارا لليلة لم تذكرها أنت قط ، منذ البداية ! ـ فلما جاء العصر اصطحبت الصبى معى فى نزهة بهيجة ، ثم عرجت به على حلوانى «ديميل» ٠ وفى المساء أخذته الى المسرح ٠٠ حتى يعتاد ابنك منذ صباه أن يحتفل بعيدك بغير أن يعرف مناسبته أو مغزاه !٠٠ ثم قضيت اليوم التالى بصحبة الصديق الذى كنت أصطفيه فى تلك الآونة ـ وكان شابا غنيا من رجال الصناعة ، عاش معى سنتين فأحبنى الى درجة تقرب من العبادة وأغرقنى وطفلى بالهدايا ، ثم عرض على الزواج منه ٠٠ لكنه ، برغم طيبته وجدارته ، فوجىء كسابقيه بالرفض ، بلا سبب ظاهر ! ـ فلما كان مساء ذلك اليوم صحبته الى حفلة موسيقية بهيجة لقينا فيها جماعة من الاصدقاء ، ثم تناولنا العشاء كلنا فى مطعم بحى « رنجشتراس » وهناك ٠٠ بين الضحك والصخب ، اقترحت على الجماعة أن نقضى بقية السهرة فى مرقص « تاباران » ٠٠ ولم أكن فى العادة أميل الى التردد على ذلك النوع من المراقص التى تفوح فيها روائح الدخان والخمر ، فكنت أرفض كل دعوة الى قضاء السهرات فيها ٠٠ لكنى فى هذه المرة أحسست فى أعماقى بقوة سحرية غامضة دفعتنى فجأة الى الادلاء بذلك الاقتراح ، دون وعى ، تحت تأثير شعور قوى بأن حدثا هاما ينتظرنى هناك ٠٠ وللحال هلل القوم لاقتراحى فى حماس ومرح ، فنهضنا توا الى هناك ٠٠ ولم أكد أجرع أول كأس من الشمبانيا حتى تملكنى فرح مجنون ، لم أحس له مثيلا من قبل ٠٠ فجعلت

أحتسى الكأس تلو الكأس، وأغنى مع الآخرين أغانيهم الثملة الصاخبة ·· وشعرت بميل لا يقاوم الى الرقص والصياح والضجيج·· وفجأة ، قفزت من مكانى كما لوكانت قد لدغتنى أفعى !·· فقد كنت أنت جالسا مع جماعة من أصدقائك حول المائدة المجاورة ، ترمقنى بنظرة اعجاب واشتهاء ، نفس النظرة التى طالما هزتنى ونفذت الى أعماق روحى ·· فأحسست لاول مرة منذ عشرة أعوام أن عينيك تعلقان بى بكل عنف وانفعال كيانك الجثمانى ·· فعرتنى رجفة شديدة ، أسقطت الكأس من يدى ·· ولكن لحسن حظى لم يلحظ رفاقى مبلغ اضطرابى، الذى لم ألبث أن أخفيته فى غمرة الضجيج والضحكات والموسيقى ··!

« ·· لكن نظرتك ازدادت سخونة ولهيبا ، حتى أغرقتنى فى طيات موجاتها المحرقة التى حيرنى مغزاها ·· لم أعلم اذا كنت قد عرفتنى ـ أخيرا ! ـ أم أنك تنظر الى كامرأة لم تضم عليها ذراعيك بعد ·· كامرأة جديدة غريبة !·· كل ما علمته لحظتئذ أن الدم صعد الى خدى ، وانى غبت بذهنى عن جماعتى ·· فصرت أكلمهم وأجيبهم بطريقة آلية ، دون امعان فكر !

« ولا بد أنك لحظت مبلغ الاضطراب الذى سببته لى نظرتك، فقد حركت رأسك بعد برهة بحركة غير ملحوظة ، فهمت منها أنك تطلب منى الخروج للقائك عند قاعة « الامانات » بالمرقص ·· ثم استأذنت رفاقك فى تركهم برهة وخرجت وأنت تومىء لى برأسك مرة أخرى مؤكدا ايماءتك الاولى ·· فعرتنى رجفة شديدة كرجفة البرد أو الحمى ، وعجزت عن الاجابة على الاسئلة التى كانت توجه لى ، فقد استحالت على السيطرة على أعصابى ·· وفى تلك اللحظة شاءت المصادفة أن يبدأ عرض رقصة جديدة يؤديها اثنان من الزنوج ، وكانت رقصة همجية غريبة فى نوعها، بحيث استرعت أبصار المتفرجين جميعا فتركزت أعينهم وأذهانهم

على الراقصين الزنجيين •• واذ ذاك أحسنت انتهاز الفرصة فانسحبت من المكان قائلة لصديقى انى سأعود بعد برهة •• وتبعتك !

*

« وفى الخارج كنت تنتظرنى فى المكان الموعود •• وأضاءت نظرتك حين رأيتنى قادمة ، فأقبلت نحوى مرحبا باشا •• وأدركت أنا على الفور انك لم تعرفنى ، لم تذكر صبية الماضى البعيد أو فتاة الامس القريب ، فقد مددت يدك نحوى بهيئة من يمدها لامرأة غريبة عنه ، يقابلها لاول مرة ! ثم همست لى فى غير كلفة : « أو تتكرمين على بساعة من وقتك ، فى أى يوم ؟ » •• فقد حسبتنى من بنات الهوى الرخيصات •• وكنت أنا عند « سوء » ظنك ، فأجبتك من فورى « نعم ! » •• ذات ال « نعم » التى تفيد الرضا ــ وان يكن يشوبها الاضطراب ــ التى أجبتك بها منذ عشرة أعوام ، فى الركن المظلم من الطريق المواجه لبيتك! •• واذ ذاك سألتنى مستطردا : « اذن متى نلتقى ؟ » •• فلم أتردد فى الجواب : « •• فى الموعد الذى يروقك » ــ فاننى معك لم أكن أخجل من شىء ! ــ فنظرت الى وأنت تحاول أن تخفى دهشتك ، كما فعلت فى نفس الموقف يوم تسرعت أنا فى اجابتك الى طلبك منذ عشرة أعوام •• ثم مضيت فى كلامك : « ترى هل أنت حرة الآن ؟ »

ــ « نعم ، فلنذهب •• »

« واتجهت نحو غرفة الامانات لآخذ معطفى •• لكننى تذكرت أن الايصال الذى يمكننى من استلامه فى يد صديقى الذى فى الداخل ، فهل أطلبه منه واستأذن فى الخروج وحدى بلا عذر سائغ ؟•• مستحيل !•• أم أترك فرصة الخروج مع حبيب العمر ، التى طالما ترقبتها وحلمت بها ، وأعود الى مكانى فى قاعة الرقص ؟•• مستحيل أيضا !•• وازاء هذا لم أتردد لحظة

فى الاختيار ، فاكتفيت بوضع شالى على كتفى فوق ثوب السهرة، وخرجت معك الى الظلام البارد المرطوب ، غير عابئة بالكائن الطيب الولهان الذى يسر الحياة لى أعواما ، والذى تركته هكذا لسخرية رفاقه فى الداخل، وأنا عشيقته منذ سنوات، كى ألبى أول اشارة من رجل « غريب » !

« لا تحسبن انى لم أقدر مدى فعلتى ، فقد شعرت شعورا عميقا بمبلغ جحودى وضعتى بل وبدناءة الجرم الذى ارتكبته فى حق صديق مخلص ٠٠ وأدركت تماما اننى بحماقتى تلك قد تحديت وجرحت احساس رجل كان معى مثـــالا للطيبة وكرم الاخلاق ، بل طعنت كرامته فى الصميم طعنة لا شفاء منها ٠٠ **وفوق هذا وذاك فقد قدرت اننى بتصرفى الاخرق انما أحطم حياتى وهنائى ومستقبلى ٠٠ ولكن ماذا تجدينى حيـــاتى ، ووجودى ، وصداقاتى ، بالقياس الى اللهفة التى كنت أعانيها والشوق الذى أكابده ، فى انتظار اللحظة التى أحس فيهـــا بشفتيك لصق شفتى ، وأسمع فيها همساتك الحلوة ونجواك الرقيقة ، الموجهة الى ؟**

« هكذا عشقتك أيها الحبيب ـ الآن أعترف لك ، بعد أن مضى كل شىء ، وانقضى ! ـ بل أعتقد انك لو ناديتنى الليلة وأنا على فراش الموت ، لوجدت القوة على أن أنهض ، وألبس ، وألحق بك!

« ولنعد الى قصتنا ٠٠ كانت سيارة تقف أمام باب المرقص، فمضينا بها توا الى بيتك ٠٠ وهل أستطيع أن أصف لك فى أية حال من الانفعال كنت وأنا أطوى سلالمك طيا ، لاول مرة بعد أكثر من عشر سنوات ؟٠٠ كلا ، كلا ، لا أستطيع ٠٠ ولا أنا مستطيعة أن أصف لك كيف انه ، خلال تلك الثوان الخاطفة ، اختلط فى رأسى الماضى والحاضر بأكملهما ، بفعل عاطفة غريبة مزدوجة ، فلم أر فى الدنيا غيرك ٠٠ ولم أحس فى الوجـــود سواك !

« وكانت غرفتك على حالها ، كما عهدتها .. فيما عدا بضع لوحات زيتية جديدة ، وأكداس أخرى من الكتب .. وعلى منضدة مكتبك آنية الزهر ذاتها ، بورودها – ورودى ! – التى كنت قد أرسلتها لك فى اليوم السابق ، لمناسبة عيد ميلادك ، تذكارا من امرأة لا تذكرها ، ولا تعرفها .. حتى وهى الآن بقربك ، ويدها فى يدك ، وفمك يأكل فمها !.. وبرغم ذلك فقد أسعدنى أن أرى مبلغ عنايتك بأزهارى ، وايثارك اياها على سواها لتزيين مخدعك .. فان ذلك خليق بأن يشيع حولك ، بالرغم منك ، أنفاسا من كيانى .. وعطرا من غرامى !

« أخذتنى بين ذراعيك .. ومرة أخرى قضيت ليلة كاملة معك .. لكنك ، حتى فى تجردى ، لم تعرفنى .. أو تذكرنى ! .. بل انى ، بدورى ، نسيت فى أحضانك كل شىء .. حتى نفسى .. فلم أعد أذكر حقيقة موقفى منك : هل أنا صبية الماضى العاشقة ، أم والدة طفلك ، أم امرأة غريبة عنك ؟.. لم أذكر الا صلواتى من أجل أن تدوم ليلتى الى الابد ، فلا تنتهى قط !

*

« **لكن** الصباح لاح وحل .. فدعوتنى الى تناول الافطار معك ، ثم جلسنا نثرثر . كنت تحدثنى بغير أدنى كلفة ، كعادتك ، وبلا فضول . لم تسألنى عن شخصى أو عن حياتى الخاصة.. أو تحاول معرفة اسمى، أو مقرى!.. فانى لم أكن بالنسبة لك غير امرأة مجهولة ترمز لحياة المغامرة الطليقة ، ولساعة الهوى التى تتلاشى فى بخار النسيان ، بلا أثر !.. وقلت لى انك تزمع القيام برحلة الى شمال افريقيا لمدة شهرين أو ثلاثة ، فارتجفت هلعا وأنا فى غمرة سعادتى ، خطر لى أن أرتمى عند قدميك وأصيح بك : « خذنى معك ، لا تتركنى !..» لكننى كنت خجلى ، جبانة ، ضعيفة أمامك .. فلم أستطع غير أن أقول : « انه لشىء يؤسف له » .. فابتسمت وأنت ترمقنى

بنظرة دافئة وتقول : « أو يؤسفك سفرى حقا ؟ » ٠٠ وفى تلك اللحظة تولانى انفعال مفاجىء فنظرت اليك بحدة نظرة طويلة ، ثم قلت لك : « ان الرجل الذى أحبه ، هو بدوره دائما على سـفر ! » ثم ثبت ناظرى فى ناظريك وأنا أناجى نفسى فى اضطراب : « الآن سيعرفنى ، لا بد أن يعرفنى ! » لكنك لم تعلق على عبارتى الا بابتسامة بريئة ، ثم قلت كأنما لتعزينى : « كل غائب لا بد أن يعود يوما » فأجبتك فى حسرة : « نعم ، يعود ٠٠ ولكن بعد أن يكون قد نسى ٠٠ »

« ولا بد انى نطقت هذه العبارة بلهجة مفعمة بالتأثر الشديد، فقد نهضت أنت على أثر سماعها واقتربت منى ، وأنت ترمقنى بنظرة تجمع بين الدهشة والرقة الخالصة ، ثم أمسكتنى من كتفى وهمست لى : « ان الطيب لا ينسى ٠٠ وأنا لن أنساك » **٠٠ بينما كانت نظرتك النفاذة تتغلغل الى أعماقى، كأنما لتحتفظ فى مقلتيك بصورة دائمة لى ٠٠ فخيل الى فى تلك اللحظة أن السحابة التى حجبت رسمى عن ذاكرتك قد انقشعت ، وأخذت أهمس لنفسى وروحى كلها ترتجف فى جسمى : « انه سيعرفنى ٠٠ سيعرفنى ٠٠ »**

« لكنك لم تعرفنى !٠٠ أبدا لم تعرفني ، بل انى لم أكن يوما غريبة عنك مثلما كنت فى تلك الساعة وأنت تجتذبنى الى صدرك فتقبلنى ، وتقبلنى مرارا بحرارة ٠٠٠ ثم تنتهز فرصة انشغالى باصلاح زينتي أمام المرآة ، فتدس فى كيس نقودى بضع أوراق مالية ذات قيمة كبيرة !٠٠ آه ، كيف لم أفقد رشدى من فرط الخجل والعار ؟٠٠ بل كيف أمكننى أن أسيطر على أعصابى فلم أصرخ فى وجهك أو أصفعك ، أنا التى أحببتك منذ طفولتى ٠٠ بل أنا أم طفلك ، التى جئت الآن تحاول أن تدفع لها ثمن ليلة غرام ، كأى امرأة من غانيات المراقص الليلية ٠٠ لا أكثر ولا أقل ؟٠٠ أو لم يكفك انك لم تذكرنى ، فعمدت أيضا الى اهانتى على هذا النحو ، واذلالى ؟

«٠٠ لم أطق صبرا، فجمعت حوائجي بسرعة وتأهبت للخروج. أردت الانطلاق فورا الى حيث أغسل جراحي ٠٠ فمددت يدى لاتناول قبعتي ، وكانت فوق منضدة المكتب ، الى جوار الآنية التى تحوى الورود البيضاء ، ورودى !٠٠ وفى تلك اللحظة ، شعرت بميل مفاجىء ، ملح ، لا يقاوم ٠٠ ميل الى محاولة اثارة ذكرياتك مرة أخرى ، وأخيرة ، فسألتك : « هلا أعطيتنى واحدة من هذه الورود البيضـــاء ؟ » ٠٠ فأجبتنى : « بكل سرور » وتناولت من فورك واحدة منها قدمتها الى ٠٠ فقلت لك متسائلة: « ولكن ، لعلها مهداة اليك من امرأة ٠٠ تحبك ؟! » فكان جوابك: « ربما ٠٠ فانى أجهل مرسلتها ٠٠ ولهذا أحبها ! » فنظرت اليك قائلة : « اذن يجوز أن تكون مرســلة من امرأة نسيتها أنت تماما ؟! »

«٠٠ واذ ذاك رفعت بصرك الى فى دهشة ، فصمدت لنظرتك بثبات ، وعيناى تصيحان بك :« تعرف على ، اذكرنى٠٠ وكفى ما فات ! » ٠٠ لكن عينيك ابتسمتا لى ابتسامة ودية ، دون أن تفهما !٠٠ وقبلتنى مرة أخرى ٠٠ لكنك لم تعرفنى !

« أحسست بالدموع تصعد الى عينى ، فاندفعت مسرعة نحو الباب ، خشية أن تلحظها ٠٠ وفيما أنا أعبر الردهة الخارجية على عجل ، كدت أصطدم بخادمك العجوز « جان » ، فتراجع الرجل فى اضطراب كى يفسح لى طريق المرور ثم فتح الباب وانحنى ، فالتقى بصرانا وأنا أمرق من الباب ٠٠ وخلال تلك اللحظة الخاطفة ـ أتسمع ؟ ـ خلال تلك « اللحظة » الفريدة العابرة ، والدموع تلمع فى عينى ، لمحت فى عينيــه وميضــا مفاجئا ذا معنى ٠٠ أدركت منه أن خادمك العجوز ، الذى لم يرنى منذ صباى ، عرفنى لاول وهلة !

« ٠٠ وبدون تفكير أو تردد وجدتنى ألتقط من حقيبة يدى حزمة الاوراق المالية التى لطمتنى بها، وأضعها فى يده٠٠ فارتبك

قليلا ونظر الى نظرة حائرة بين الشكران والرثاء ، وقد بدا انه فهمنى فى لحظة واحدة أكثر مما فهمتنى أنت طيلة حياتك !٠٠ تماما كما أحبنى جميع الرجال الذين عرفتهم ودللونى ، بقدر ما نسيتنى أنت وحدك ، ولم تعرفنى قط !

- ٦ -

« ◆ **لقد** مات ابنى ، ابننا ٠٠٠ ولم يبق لى فى الدنيا من أحبه سواك ! ولكن من أنت بالنسبة لى ، أنت الذى لم تعرفنى يوما أو تعبأ بى ٠٠ والذى تمر بى كما يمر الانسان بجدول ماء، وتطأنى بقدميك كما تطأ حجرا أصم ٠٠ وتذهب وتجىء ، وتتابع طريقك فى الحياة تاركا اياى فى سجن الانتظار المؤبد !؟٠٠ لقد حسبت يوما اننى ملكتك ، ملكتك فى شخص طفلك ٠٠ لكنه كان طفلك حقيقة ، شبيهك فى كل شىء ، فهجرنى فجأة فى عتمة الليل ، بلا رحمة ، كى يقوم برحلة هو الآخر ٠٠ لكنها رحلة أبدية لن يعود منها قط !٠٠ وهأنذا عدت وحيدة كما كنت ، بل أشد وحدة مما كنت يوما ٠٠ بلا طفل ، ولا أنت ، ولا ذكرى منك ، أو كلمة بخطك ٠٠ ولو نطق أحد باسمى أمامك ، لما كان له فى سمعك أو نفسك أى صدى أو معنى ٠٠ فلماذا اذن لا أموت، طائعة مختارة ، ما دام وجودى وعدمى عندك سيان ، بل ما دمت لا وجود لى فى نظرك أصلا ؟!٠٠ لم لا أترك هذه الدنيا ، مادمت قد تركتنى ؟٠٠ ولكن ، دعنى أكرر لك اننى لست أتهمك أيها الحبيب ، فما أريد أن تكدر أشجانى صفو حياتك ، وانما هى حاجتى الى البكاء التى دفعتنى الى كشف همى لك على هذا النحو، من أعماق روحى ، فى هذه الساعة التى يرقد فيها ابنى ممددا الى جوارى ، جسدا لا حياة فيه ٠٠ فسامحنى ٠ **كان لا بد أن أخاطبك مرة ، قبل أن أعود الى العدم وأصمت الى الابد !٠٠ لكن صيحتى هذه لن تبلغك ما دمت حية ٠ لن تبلغك الا بعد موتى**

هذه الوصية الاخيرة ، وصية امرأة أحبتك أكثر من جميع النساء الاخريات اللاتي عرفتهن في حياتك ، ومع ذلك فانك لم تعرفها يوما !٠٠ امرأة انتظرتك ولم تكف عن انتظارك يوما ، أو تسأم ٠٠ومع ذلك فانك لم تستدعها أو تطلبهاقط!٠٠ ولعل أخشى ما تخشاه الآن أن تناديها يوما فيما بعد ، فلا تملك أن تلبي لك نداء ، لا لانها سوف تخذلك أو تبخل عليك ، بل لانها لن تسمع في قبرها نداءك !

« أيها الحبيب ٠٠ لن أخلف لك أية صورة لى أو رسم يدلك على شخصيتى ، أو يذكرك بى ٠٠ وهكذا لن تعرفنى يوما فى المستقبل ، كما لم تعرفنى يوما فى الماضى ٠٠ فما دام ذلك كان قدرى المكتوب وحظى من الحياة ، فليكن أيضا نصيبى بعد الموت! ٠٠ لذلك لا أريد أن أستدعيك فى ساعتى الاخيرة ، كى أذهب دون أن تعرف اسمى ، أو رسمى !٠٠ وما دمت لن تقاسى ألما بموتى فانى أموت غير آسفة ٠٠ ولو كنت أعلم أن موتى يسبب لك أى شجن لما أقدمت عليه !

« أحس اننى لن أستطيع الاستمرار فى الكتابة ، فقد ثقل رأسى ٠٠ وبدأت أطرافى تؤلمنى ٠٠ اننى محمومة ، ولن يمضى وقت طويل حتى أرقد بلا حراك على فراش الموت ، فلعل القدر أن يكون رحيما معى مرة ، فلا يمهلنى حتى أرى الرجال ذوى الثياب السوداء يحملون ابنى !٠٠ لست أستطيع المضى فى الكتابة أكثر من ذلك ، فوداعا أيها الحبيب ، وداعا ٠٠ وشكرا٠ ولسوف أشكرك حتى نفسى الاخير !٠٠ أحس عزاء رحيما فى كونى قد أطلعتك على كل شىء ، فأنت تعلم الآن – عفوا، بل تخمن فقط – كم أحببتك ٠٠ وبرغم ذلك فان حبى هذا لن يخلف لك عبئا ما ، ولن تستوحش لغيابى ٠٠ وهذا ما يعزينى !٠٠ لن يحدث فى حياتك الرائعة الرائقة أى تغيير ، ولن يسبب لك موتى أى شجن ، وهذا ما يريحنى فى ساعتى الاخيرة ، أيها الحبيب ٠٠!

« ولكن ٠٠ من سوف يرسل لك بعد الآن ، فى أعياد ميلادك، باقة الورود البيضاء ؟ آه ، ان الآنية سوف تظل فارغة ، وبذلك تختفى من حياتك حتى هذه النسمة الهزيلة من أنفاسى ، التى كانت تحلق فى سمائك مرة كل عام! ٠٠ أيها الحبيب ، اصغ الى ، أتوسل اليك ٠٠ انه الرجاء الاول والاخير الذى أوجهه اليك : بحق حبى أفعل ما سأطلبه منك الآن ٠٠ فى كل عيد لميلادك نب عنى فى شراء الورود البيضاء ، وضعها فى الآنية ، فى مكانها المعهود ! ٠٠ افعل هذا كما يقيم الناس صلاة على أرواح موتاهم الاعزاء ٠٠ فلست أريد غير ذلك صلاة على روحى ٠٠ ولست أبغى خلودا الا فى قلبك !

« انها ضراعتى الاولى لك ، وهى أيضا الاخيرة ٠٠ فافعل ما أطلبه منك ، أيها الحبيب ٠٠ وشكرا ٠٠ ثم وداعا ! »

*

◆ فرغ الروائى من قراءة الرسالة ، فترك آخر ورقة من أوراقها تسقط من بين أصابعه المرتجفة ، وغرق فى لجة من التفكير الطويل !.. اخذت تتتابع على ذاكرته صور من الماضى مضطربة مشوشة ، لصبية الجيران .. وفتاة الطريق .. وامرأة المرقص .. لكن هذه الصور ظلت غامضة لا تبين ، كحجر يلمع ويضطرب تحت الماء بغير أن تستقر هيئته فى الابصار .. وهكذا أخذت الاشباح والظلال تتوالى فى ذهن المؤلف فتتقدم ، وتتراجع ، وتختلط ، دون ان تتكون منها صورة ثابتة واضحة المعالم !.. وتجاوبت فى نفسه ذكريات رقيقة كثيرة ، لكن واحدة منها لم تتشكل أو تتحدد وتنشأ لها أبعاد !

بدا له كما لو كان قد حلم بكل هذه الرؤى والاطياف .. حلم بها كثيرا وأنغمس فيها مرارا ، لكنها لم تخرج عن كونها أحلاما !.. وحانت منه نظرة الى آنية الزهر التى أمامه .. فاذا هى فارغة خاوية ، لاول مرة فى يوم عيد ميلاده ! فنفضت بدنه قشعريرة شديدة ، وكأن بابا خفيا انفتح فجأة فاندفع منه الى داخل الغرفة تيار من الهواء المثلوج ، آت من العالم الآخر !.. أحس أن شخصا ما قد مات لتوه ، بعد أن عاش يغمره بحب خالد .. فاختلج شىء فى أعماق روحه ، ومر بخاطره شبح العاشقة المجهولة ، فشرد بصره وذهنه الى واد سحيق .. كما لو كان يصغى الى موسيقى بعيدة !

نحن وأكبادنا



البيت والعائلة والطفل

عزيزى القارىء ...

يقول الناقد الثقافى لمكتبة جامعة اكسفورد : ((ان (رحلات جوليفر) من أعظم الكتب الساخرة فى تاريخ الادب العالمى .. وهو يمتاز بطابع نادر ، انه يعجب الكبار والصغار على السواء : يعجب الكبار لسخريته اللاذعة بالبشر، وحقارتهم ، وحماقاتهم، ورذائلهم .. ويعجب الصغار لما يحتويه من وصف شائق لرحلات بطله ((جوليفر)) فى بلاد العجائب !)) .. وقد نشر الكتاب سنة ١٧٢٦ ، ومنذ ذلك التاريخ يحتل مكانة ممتازة بين المؤلفات العالمية الخالدة .. ومن الطريف انه كان الكتاب الوحيد بين مؤلفات ((جوناثان سويفت)) الذى نال عليه أجرا !

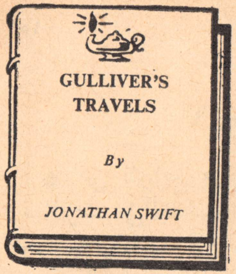
وقد قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية من كتابى القصص التالية ، مبسطة للاطفال :

- حلم ليلة صيف : شكسبير
- أوليفر تويست : تشارلس ديكنز
- الصندوق الطائر : هانز أندرسن
- الليلة الثانية عشرة : شكسبير

وفى الاعداد القادمة اقدم لك المزيد من هذا اللون من القصص ..

روائع القصص الكلاسيكى للأطفال

رحلات جوليفر



جوناثان سويفت



١ - جوليفر فى بلاد الاقزام

◆ فى الرابع من مايو سنة ١٦٩٩ فارقت زوجتى الشابة وسافرت على السفينة «أنتيلوب» -أى الظبى- الى البحار الجنوبية، كجراح لركابها ٠٠ ولكن عاصفة قوية طوحت بنا الى صخرة فى شمال غربى بلاد « فان ديبمان » ، فتحطمت السفينة ٠٠ ووجدت نفسى فى النهاية وحيدا على شاطىء جزيرة مهجورة ، فاستسلمت لنوم عميق من أثر التعب المرهق ، حتى اذا استيقظت ، هممت بالنهوض ٠٠ فاذا بى أجد نفسى عاجزا عن تحريك يدى وقدمى ، وقد ربطت ذراعاى وساقاى وشعرى الى الارض بخيوط متينة من « الدوبارة » ! ٠٠ وسمعت حولى أصواتا غريبة ، ثم شعرت بشىء أخذ يتسلل على ساقى اليسرى حتى بلغ ذقنى ٠٠ ولما تبينته ، وجدته انسانا لا يبلغ طوله ست بوصات - أى ١٥ سنتيمترا - وقد وقف على صدرى ، مسلحا بقوس وسهم ! ٠٠ فلما رأيته أطلقت صيحة دهشة وفزع ، واذ ذاك بادر ومن معه بالفرار !

نقلى الى عاصمة « ليليبت »



وحاولت أن أتحرر من الخيوط التى قيد بها وثاقى، واذا بمئات السهام تنغرس كالابر فى ذراعى اليسرى ، فرأيت من الحكمة أن أبقى ساكنا ٠٠ وازداد الجمع المحتشد حولى ، حتى

اذا انقضت برهة ، صعد شخص جليل المظهر ـ يقرب فى الحجم من اصبعى الوسطى ـ على منصة أعدت له ، وألقى على خطابا بلغة لم أفهمها ، ولكننى آثرت أن أبدى الخضوع والطاعة ! وكان الجوع قد برح بى ، فأخذت أنبههم بالاشارة الى حاجتى الى الطعام ٠٠ **وبناء على أمر «الحاكم» ، صعد مائة من الاهالى على سلالم وساروا الى فمى ليطعمونى ، فأخذت ألتهم فى الدفعة الواحدة ثلاث فخذات من اللحم الضأن ـ لا يزيد حجم الفخذة منها على حجم جناح اليمامة ! ـ وبضعة أرغفة من الخبز لا يزيد الواحد منها على حجم الرصاصة الصغيرة** ٠٠ وفرح أهل « ليليبت » ـ أى بلاد الاقزام ـ لشهيتى ، فأخذوا يرقصون على صدرى ٠٠ وما لبث أحد كبار القوم أن أفهمنى انهم سيحسنون معاملتى ويعتبروننى أسيرا لديهم ، ثم مزجوا بشرابى مخدرا قويا ، فغبت فى نوم عميق ٠٠

وتولى حشد من العمال نقلى الى عاصمة البلاد على أكبر قاطرة عندهم ! ومع ان المسافة لم تكن تزيد على نصف الميل ، الا أن القطار قطعها فى يومين ٠٠ وهناك ، وضعت فى معبد مهجور ، وقيدونى بالسلاسل ٠٠

الامبراطور يزورنى ويعلمنى لغة بلاده

◆ **ثم** زارنى الامبراطور ، الذى أثبت أنه أحكم وأكرم من أى حاكم فى أوربا ، لانه أصدر قرارا بسجنى بدلا من قتلى ٠٠ وكان يزيد فى الطول قلامة ظفر عن أى شخص من رجال الحاشية الذين كانوا يختالون فى ثياب غالية ، ويقفون على بساط محلى بالنقوش ٠٠ وكان الامبراطور فى حوالى التاسعة والعشرين من عمره ، وقد بقى فى الحكم سبعة أعوام كانت السعادة خلالها تسود شعبه ٠ وقد تعددت زياراته لى ، وساعدنى على أن أتعلم لغة قومه ٠٠

وقبلت ـ بناء على رغبته ـ ان يفتشنى اثنان من الضباط ، عثرا فى أحد جيوبى ـ وكان الجيب أكبر منهما حجما ! ـ على

منديل وصفاه فى تقريرهما للامبراطور بأنه « قطعة كبيرة من القماش الخشن تصلح بساطا يفرش تحت قدمى جلالتكم فى قاعة العرش » ٠٠ وعلى علبة سعوط ــ نشوق ــ وصفاها بأنها « صندوق ضخم من الفضة دخله أحدنا فاذا به يغـــوص الى منتصف ساقه فى غبار تطاير بعضه فى وجهينا فرحنا نعطس بشدة ! » ٠٠ كما وصفا ساعتى بقولهما انها « آلة عجيبة ينبعث من جوفها ضجيج لا ينقطع ! »

الحرب مع جزيرة «بليفوسكو»

◆ **واكتسبت** بحسن مسلكى رضاء الامبراطور ، فدعانى يوما لمشاهدة عدد من ملاهى البلاد وألعابها ٠٠ ولكنى علمت ان البلاد لم تكن فى حالة ازدهار كما تبدو للاجانب ، وانمـا كانت تعانى من جراء النزاع المستحكم بين حزبين كبيرين فيها، امتاز أحدهما بطول كعوب أحذية أعضائه عن كعوب أعضاء منافسه **٠٠وفضلا عن ذلك، كانت البلاد مهددة بخطر الغزو من جزيرة «بليفوسكو» ــ وهى بلاد أخرى للاقزام ــ لخلاف بين الدولتين حول ما اذا كانت البيضة تكسر عند طرفها المدبب أو عند الطرف العريض حين كسرها!** ٠٠ وكان عرض الخليج الذى يفصل بين البلدين لا يتجاوز ثمانمائة ياردة ، مما مكننى من أن أرى أسـطول الاعداء ، فأعددت بعض الاسلاك الغليظة ، وخضت مياه الخليج التى لم تكن تزيد فى العمق على ستة أقدام ، حتى وصلت الى الاسطول فشبكت فيه أسلاكى ورحت أجره ٠٠ بينما انهالت على آلاف السهام حتى كادت تعمينى ، لولا اننى حميت عينى خلف نظارتى ٠٠ واستطعت بسهولة أن أعود بخمسين من أكبر سفن العدو ، أسلمتها الى الامبراطور ! ٠٠ ولكن الطموح أغرى هذا بأن يسعى لضم بلاد « بليفوسكو » الى سـلطانه ، فرفضت فى حزم أن أشترك فى استعباد شعب من الشعوب ،

فأثار رفضى ارتياب القوم فى وجعلنى هدفا للدسائس ! ٠٠ وقد بلغ من غيرة قائد الاسطول البحـرى منى ، بسبب ما أحرزت من نصر ، انه دبر مؤامرة لاعـدامى بتهمة الخيـانة العظمى ! ٠٠ فبادرت الى الفرار عن طريق البحر ٠ وما لبثت أن عثرت على سفينة انجليزية تحمل البضائع بين انجلترا واليابان ٠٠ وظننى ربانها أهذى حين رويت له مغامراتى، ولكنه اقتنع عندما أريته المواشى والاغنام التى حشوت بها جيوبى عند فرارى !

وهكذا غادرت بلاد الاقزام وأنا معجب ببعض عاداتها وقوانينها ٠٠ فالغش هناك جريمة تفوق السرقة فى العقوبة ٠٠ كما ان حسن الخلق عند أهلها أقوى فى الترشيح للوظائف من أرقى المؤهلات ٠٠ وهم يعاقبون الجاحد للجميل بالاعدام٠٠ويعتقدون ان الآباء والامهات آخر من ينجح فى تربية الابناء !

٢ ـ جوليفر فى بلاد العمالقة

◆ **وعلى** أثر عودتى الى انجلترا لم أمكث فيها سوى شهرين، ربحت فيهما مالا كثيرا ، اذ أقمت معرضا للمواشى والاغنام الصغيرة الحجم ٠٠ وما لبثت ان بدأت رحلتى الثانية ، على سفينة كانت تقصد بلاد «سرات» ، ولكن الاعاصير دفعت بها الى شاطىء قارة مجهولة ! ـ أو لعلها كانت جزيرة ـ فغادر اثنـا عشر شخصا منا المركب بحثا عن الماء العذب ٠٠ فلما عثرنا عليه ، تركت زملائى يملأون به الاوانى والاوعية، ومضيت أتمشى متنزها فى أنحاء الجزيرة ٠٠ وما ان عدت الى الشاطىء ، حتى رأيت زملائى جميعا قد اندفعوا الى الزورق وراحوا يجذفـون مبتعدين فى ذعر من عملاق هائل كان يخوض الماء وراءهم !

وأسرعت أختبىء بين عيدان الاذرة التى كانت مرتفعة فى طول عجيب ٠٠ وفجأة ، أقبل سبعة من العمالقة ليجمعـوا المحصول ، فعثروا على ٠٠ وتذكرت والخوف يتملكنى كيف

كنت أبدو ماردا ضخما بالنسبة لاهل بلاد الاقزام ٠٠ وصرخت فزعا حين اقترب منى أحد هؤلاء العمالقة ، فنظر الى وكأنني حيوان صغير خطر ، ولكنني نجحت ـ بما كنت أصدر من حركات وأصوات ـ فى اقناعه بأن لا يقضى على ، فما لبث أن تناولني بين اصبعيه الابهام والسبابة ، وحملنى الى صاحب المزرعة ، الذى كان صوته كالرعد القاصف ! وراقه منظرى فعرضنى على زوجته التى ذعرت منى فى البداية ، ثم ألفتنى فضمتنى الى الاسرة حيث أحبتنى ابنتها ـ كما تحب دمية تلعب بها ـ وراحت تعلمنى لغة « برويدينياج » ، أو بلاد العمالقة ٠

وأخذ صاحب المزرعة يعرضنى على رواد السوق القريبة ، بعد أن وضعنى فى قفص على ظهر جواد كان يقطع فى الخطوة الواحدة أربعين قدما ٠٠ فكسب من ورائى كسبا طيبا جعله يحملنى الى عاصمة البلاد ، حيث أقبل الناس على مشاهدتى فى دهشة وعجب ٠٠ وذاع صيتى حتى انتهى الامر بعرضى على الملكة ، التى ابتاعتنى من صاحب المزرعة ، واستأجرت ابنته لتعنى بى !

الانجليز أسوأ الحشرات المؤذية على الارض !

◆ **وأعد** لى مبنى خاص ملائم لاقامتى ، وما لبثت أن صرت أنيس الملكة وسميرها ، وكنت أجلس معها الى المائدة دائما ، أتناول طعامى فى أطباق تعتبر كأطباق الدمى وعرائس اللعب اذا قيست بأطباقها ٠ وكان منظر الملكة يثير الذعر فى فؤادى، اذ كانت تدفع الى فمها ـ مرة واحدة ـ جناح طائر كبير يعادل حجمه تسعة أمثال حجم الديك الرومى الكبير ! وكان الملك يتناول عشاءه مع الملكة فى مساء الاربعاء من كل أسبوع ، فكان يستدرجنى للحديث عن العادات الشائعة فى دول أوربا٠٠ وتناولنى مرة فى يده ، وسألنى وهو يضحك عن الحزب السياسي الذى أنتمى اليه ، ثم التفت الى رئيس وزرائه قائلا:

« ما أحقر عظمة الانسان اذا كانت هذه الحشرات الضئيلة تمثلها ! »

ورويت له تاريخ بلادنا « انجلترا » ، فاعترضنى قائلا ان القرن الاخير من هذا التاريخ لم يكن سوى سلسلة من المؤامرات والمذابح والثورات ، انبعثت عن الجشع، والقسوة، والبغضاء، والطمع . ومضى قائلا : « انها قد أثبتت بجلاء ان الجهل والرذيلة هما أهم مؤهلات المشرعين ، وان القوانين انما يفسرها ويطبقها أولئك الذين تتطلب مصالحهم ان يخرقوها ، وان يشوهوها ، وان يبحثوا عن مخارج للتملص منها .. ولا يسعنى الا أن أستنتج ان مواطنيك بأسرهم هم أسوأ جنس من الحشرات المؤذية التى أنبتتها الطبيعة على وجه الارض ! »

وحاولت أن أكتسب عطفه بأن أطلعه على سر صناعة البارود الذى يستطيع به أن يمزق أى بلد يتمرد على سلطانه .. فتولاه الارتياع ، وقال انه يفضل أن يفقد نصف مملكته على أن يستغل مثل هذا السر !

وعلى هذه الحال قضيت فى بلاد العمالقة عامين ، سئمت خلالهما الحياة كطائر مدلل فى قفص .. وذات يوم صحبتنى الملكة فى رحلة الى الساحل ، وحدث أن تركت القفص الذى يتألف منه مسكنى دون حراسة ، فاذا بنسر يختطفه ويحلق به فوق البحر ، ثم يسقطه فى الماء لسبب ما .. الى أن قدر لاحدى السفن أن تنتشلنى ، فما ان رأيت بحارتها ، حتى خيل لى أنهم أضأل وأصغر مخلوقات رأيتها ، لفرط ما تعودت عيناى رؤية العمالقة !

٣ - جوليفر فى مملكة الخيل

◆ **وقمت** بعد ذلك بعدة رحلات : كانت احداها الى الجزيرة العائمة ، وأخرى الى جزيرة السحرة ، حيث تكلمت مع مشاهير الموتى ، وثالثة الى مملكة « لجناج » حيث تعيش قبيلة من الخالدين الذين لا يموتون ! .. ثم قضيت خمسة شهور

فى انجلترا ، رحلت بعدها على سطح السفينة « ادفينشر » ـ أى المغامرة ـ كربان لها ٠٠ ولكن القراصنة هاجموها فى البحار الجنوبية ، ورموا بى على سواحل دولة مجهولة ، التقيت فيها بأبشع حيوان رأيته فى أسفارى ـ اذ كان رأسه وصدره مكسوين بالشعر الكثيف ، كما نبت الشعر الخشن بطول عموده الفقرى ، وفى الاجزاء الامامية من ساقيه وقدميه ٠٠ فى حين كان جلده ذا لون بنى باهت ٠٠ وكان وجهه مسطحا ، تتخلله شفتان غليظتان ، وأنف ذو منخارين واسعين ٠ أما يداه فكانتا تشبهان يدى ، ولكن أظافرهما كانت بالغة الطول !

وقد هاجمنى جمع من هذه المخلوقات البشعة ـ وتدعى « الياهو » ـ ولكنها أسرعت بالفرار فجأة فى ذعر ، فتلفت حولى أستبين مصدر خوفها ، واذا بحصان رمادى اللون يسير برفق فى الحقل ٠٠ **وأدهشنى ان سمعته يصهل بفصاحة مكلما زميلا له ! ثم أخذا يتأملانى معا عن قرب ، فى امعان جعلنى أظنهما آدميين مسحورين ، وما لبثت الفرس الرمادية أن قادتنى الى مبنى وجدت فيه مهرين وثلاثا من اناث الخيل ، تقوم بالاعمال المنزلية العادية ، مما أوحى لى بأنها فى مسكنها العائلى !**

ولما كنت بفطرتى سريع الالمام باللغات الاجنبية ، لذلك لم تنقض عشرة أسابيع حتى كنت قادرا على الاجابة عن أسئلة الحصان الذى أصبح سيدى ٠ وكان مشوقا الى أن يعرف كيف أبدو عاقلا ، قوى الفهم ، فى حين انه من المتعذر على قوم « الياهو » ـ وهو اسم تلك الحيوانات البشعة ، أو القرود ، الشبيهة بالانسان ـ ان يدركوا شيئا ٠ فرجوته ان لا يقيسنى بهذه الحيوانات التى استعبدتها الخيل ، أو « أكمل مخلوقات الطبيعة » ، كما كانوا يسمون أنفسهم ٠٠ وقلت له ان أبناء بلادى يعتبرون أنفسهم الجنس الوحيد الذى أوتى عقلا ، فأبى أن يصدق أن هناك من يفوق الخيل ذكاء ، وقال اننى من جنس

أقل شأنا حتى من « الياهو » ، فليس لاظافرى أية فائدة ، كما ان ساقى لا تعدلان فى الثبات ما أوتى الخيل من قدرة الاستواء على سيقانها الاربع ٠٠ فضلا عن ان جسدى مجرد من الكساء الطبيعى ، يقصد الشعر ٠٠ !

فضائل الخيل وخصالها السامية

◆ **وأنبأته** ـ فى سياق الحديث ـ ان من أسباب الحروب فى أوربا ، عدم قناعة الحكام الطموحين بما أوتوا من أراض، ودهاء الوزراء الذين يحاولون باثارة الحروب أن يشغلوا الرأى العام عن فساد حكمهم ، وتباين الآراء حول أمور تافهة ٠٠ وسكت الحصان ذعرا حين وصفت له ما تؤدى اليه الحرب من الفتك الوحشى بآلاف الناس ، ومن تدمير القنابل للعمران ، ومن الطمع والتخريب٠٠ **ووصفت رئيس الوزراء فى بلادى ـ انجلترا ـ بأنه الرجل الذى لا يقول الصدق أبدا ، الا اذا بدا كالكذب ! ٠٠ وذكرت له كيف ان أبناء الطبقة الراقيــة فى انجلترا نشــأوا على الترف والكسل، وكيف انهم لايعيشون الا ليسعوا وراء زيجات يكسبون من ورائها أموالا ، والا ليكونوا فرائس سهلة للامراض٠٠** فقال لى بدوره ان أهل «الياهو» أيضا يكره بعضهم بعضا ، ويتقاتلون من أجل الغذاء واقتناء النساء ٠٠ وتبينت أن الخيــل أرقى خصالا من الانسان ، بل هم أسمى منه لانهم يعنون بتنمية عقولهم وأفكارهم، لاليستخدموها



المؤلف : جوناثان سويفت

فى التصارع والحزازات ، وانما كوسيلة للاقتناع ٠٠ وان أظهر فضائلهم هى الصداقة والاحسان ٠٠ وانهم يربون أولادهم على النشاط ، والعمل ، والنظافة ٠٠ كما انهم يحبون الاعتدال والانصاف ٠

ومن محاضرات « سيدى الحصان » اكتسبت المعرفة الضئيلة التى لدى ٠٠ وكنت بين الخيل فى أكمل سعادة ، اذ لم أعد معرضا لغدر صديق أو عدو ، كما حظيت بمجتمع لا عهد له بالاطباء والمحامين الذين يمتصون الدماء ، ولا بالساسة المخادعين ، ولا بالنساء الغاويات ، ولا بالمتحذلقين المغرورين ومن اليهم ٠٠ ولم أعد أرغب فى العودة الى أهلى وأصدقائى وبنى وطنى ، اذ لم أجدهم أفضل من « الياهو » ، لولا ان حصانا اعترض على «سيدى» لانه يعاملنى كما لو كنت على قدم المساواة مع الخيل ، فأنذرنى «سيدى» بالرحيل ٠٠ فاذا بى من فرط حزنى أهوى عند قدميه فى اغماءة !

مساوىء الاستعمار الانجليزى ٠٠ فى نظر انجليزى !

◆ **ورحلت** الى (لشبونة) بقلب مثقل بالحزن ، وقد سادت ذاكرتى فضائل الخيل ، حتى أصبح النساء والرجال العاديون يملأون نفسى باشمئزاز طاغ ، فكنت أسد أنفى تقززا من رائحتهم

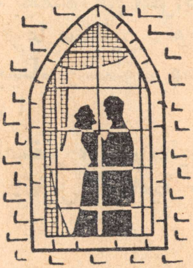
٠٠ حتى لقد أغمى على حين قبلتنى زوجتى ـ بعد فراق دام ثلاث سنوات ـ وبقيت عاما كاملا لا أطيق وجودها !

وهاأنا قد سردت عليكم تاريخ رحلاتى ، للخير والصالح العام ، اذ من بربكم يقرأ فضائل الخيل ولا يستحى من نفسه ؟

وقد يعجب البعض من أننى لم أسع لكى تضم انجلترا البلاد التى اكتشفتها الى أملاكها ،ولكنى لم أشأ أن تتكرر قصة الاستعمار بعينها، عندما تطوح العاصفة بجماعة من القراصنة الى أرض مجهولة ، فينزلون بها ليخدعوا قوما مسالمين ، ويقابلون الاحسان بالاستعباد باسم ملكهم ، وبذلك ينشئون مستعمرة جديدة تفرض عليها المدنية بحد السيف !

لهذا آثرت أن أعتكف فى بستانى الصغير ، أعلم «الياهو» ـ أو القرود ـ من أبناء أسرتى ، فضائل الخيل السامية ٠٠

خلف النوافذ المغلقة



عباقرة الإنسانية

فى حياتهم الخاصة

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد الستة الاولى من (كتابى) قدمت لك فى هذا الباب قصة الحياة الخاصة لفيكتور هوجو ، كما كتبها أديب من اسرته وذوى قرباه هو «ليون دوديه»

وفى كتابى الممتاز الاول قدمت لك فى نفس الباب «اعترافات جان جاك روسو» ، وهو الكتاب الذى فتح فى الادب «الشخصى» فتحا جديدا ، اذ كان أول كتاب يتحدث فيه اديب عن نفسه ، «فيشرح» عيوبه قبل حسناته بصراحة وجرأة لم يكن للناس عهد بهما من قبل ..

وفى كتابى السابق قدمت لك الفصل الاول من الكتاب الممتع الذى أصدره الاديب العالمى «أندريه موروا» منذ أسابيع ، وروى فيه حياة الاديبة والملهمة الخالدة «جورج صاند» ، بالقلم البارع الذى قدم للعالم من قبل قصص حياة كل من : شيللى .. دزرائيلى .. بيرون .. تورجنيف .. فولتير .. ديكنز .. شاتوبريان .. الخ

واليوم اقدم لك الفصل الثانى من هذا الكتاب الشائق الذى سوف نتابع فصوله التالية فى أعداد كتابى القادمة باذن لله

خلاصة ما نشر

◆ فى الفصل الاول من هذا الكتاب ، الذى قدمته لك فى العدد الماضى ، تتبعنا «شجرة العائلة» التى انحدرت منها جورج صاند ، فاذا كل أفراد تلك السلالة العجيبة شخصيات بارزة : منهم الملوك ، والقواد العظام ، والراهبات الذائعات الصيت ، والممثلات الشهيرات .. الخ – وكانت كل امرأة تولد فى الاسرة تسمى «اورور» ، كما فى القصص الخرافية .. وكان لكل نساء الاسرة ابناء وعشاق ، وكن مولعات بالابناء أكثر من ولعهن بالعشاق !.. وتقاطر سيل الابناء غير الشرعيين فى العائلة بغير حساب ، لكن آباءهم كانوا يعترفون بهم ، فينشأوا فى ترف ورفاهية ، كأبناء الملوك !

وعن هذه السلالة العجيبة ورثت جورج صاند تحديها الجرىء للحياة ، وتعلقها بالارضيات ، وشراهتها الجنسية .. حتى ليمكن القول بحق أن تاريخ أسرتها فيه الكثير من عناصر قصص الف ليلة وليلة !

وكان ابوها – موريس دوبان – ضابط أركان حرب فى الجيش الفرنسى ، فالتقى أثناء الحملة الايطالية بحسناء فاتنة الطرف ضاحكة السن ، تدعى صوفى ديلابورد – وكانت عشيقة قائده ! – وقد كتبت جورج صاند فيما بعد تصفها بقولها : «كانت أمى من النوريات الفجر ، سليلة جنس منحط متشرد .. وقد كانت – فى فترة من حياتها – راقصة ، أو بالاحرى شيئا أحط من راقصة ، فى ملهى من أقذر ملاهى باريس سمعة !.. حتى قيضت لها الاقدار رجلا موسرا انقذها من هذا الوحل ، ولكن ليفرض عليها حياة اكثر وحلا ! وحين التقى أبى بها كانت فى الثلاثين ، تعيش فى دوامة من الفوضى الضارية .. لكنه كان ذا قلب كبير ، وقد ادرك أن الحسناء التعسة ما تزال قديرة على أن تحب ، وتهب قلبها مخلصا لمن تحب !»

لكن موريس اشفق من مصارحة أمه – الوقورة المتزمتة – بحبه لتلك المرأة ذات العفة الجريحة ، وبتفكيره فى الزواج منها .. فلبث يرجىء «الازمة» شهرا بعد شهر ، حتى حملت «صوفى» منه ، وباتت ترتقب يوم وضع حملها بقلب واجف ، فاضطر العاشقان الى مواجهة المحنة المحتومة ، وعقدا زواجهما – سرا – فى ١٦ أبريل سنة ١٨٠٤ ، فى دار العمدة بباريس ، كى يكفلا للمولود اسما شرعيا ..

وفى مساء أول يولية سنة ١٨٠٤ وضعت صوفى مولودة انثى دعتها «اورور» .. فلما علمت جدة الطفلة بالنبأ الفاجع حاولت جهدها ان تلغى زيجة ابنها الفاضحة ، لكنها فشلت .. وأبت أن ترى الزوجة أو الطفلة – حفيدتها – زمنا .. حتى فوجئت يوما بابنها يحمل طفلته الى بيتها ويصعد السلالم قفزا والدموع تتسابق على خديه

وعانقته آمه !.. ثم قبلت ابنته الرضيعة «أورور دوبان» ، التى سنرى نجمها يلمع فى التاريخ باسم «جورج صاند» !

طفولة « أورور »

◆ **وبعد** أسابيع تمت المراســم الدينية للزواج ، بحضور مدام دوبان . لكن علاقات الحماة بزوجة ابنها ظلت متوترة ، الامر الذى أثار كرامة صوفى — وكانت برغم كل شىء أبية عزيزة النفس ، لا تقل فى هذا الشأن عن زوجها العريق الاصل — وفى هذا الصدد تقول ابنتهما جورج صاند — أو «أورور» كما كانت تدعى: « لقد ورثت عنهما ذلك النفور الدفين من النــاس ، بل ذلك « الذعر » من المجتمع الذى سبب لهما شقاء بالغا .. ونتيجة لهذا الشعور نشأت أحس ان العالم الخارجى شىء لا يطاق ، وان السعادة المثلى فى أن يكون لى بيت أنطوى فيه على نفسى بعيدا عن شرور البشر .. »

وبعد بضعة أشهر من مولد الطفلة عادت الام الى مقر زوجها فى ايطاليا ، ففطمت الصغيرة وأرسلت لتعيش مع ابنة خالتها « كلوتيد » فى (شايو) — من ضواحى باريس — حيث قضت الصغيرتان نحو عامين أو ثلاثة فى بيت امرأة طيبــة كانت تأخذهما الى باريس كل يوم أحد على ظهر حمار ، بعد أن تضع كلا منهما فى سلة مع كميات الكرنب والجزر التى تحملها الى السوق .. !

وهكذا ، بسبب رفض أسرة الاب أن تكون لها بالطفلة أية صلة ، شبت أورور خلال السنوات الاربع الاولى من حياتهــا لا تكاد تعرف غير أقرباء أمها .. أما أبوها فلم يكن فى نظرها أكثر من ضابط يرتدى حلة عسكرية رائعة ، وينتهز فرصــة خاطفة خلال الحملات الحربية كى يأتى ليطبع على خد الصغيرة قبلة ثم يمضى !

وفى نهاية العام الثالث عادت أم الصبية — صوفى — الى باريس ، فاتخذت لنفسها ولطفلتها مسكنا صغيرا فى شــارع (جراند باتيلير) ، حيث كانت تقضى يومها فى الطهى والحياكة وأشغال

الابرة ، تاركة « أورور » تتسلى بتقليب كتبهـــا المصورة التى تحوى قصصا من أساطير الاغريق والاناجيل الدينية ٠٠ وكانت صوفى تشرح هذه القصص لطفلتها بذكاء البسطاء ، كما كانت تروى لها الحكايات الخرافية ، وتستعيدها اياها ، ثم تعلمها الصلوات التى تتلوها قبل أن تنام ٠٠ وقد عاشت أورور طيلة حياتهـــا تذكر فى شيء من الحنين تلك الايام الحافلة بالحب الاموى ، والحنان ٠٠ والفقر !

◆ **لكن** صوفى لم تكن مستريحة البال لبقاء زوجها بمفرده فى مدريد ، معرضا لفتنة حســـان اسبانيا السمراوات ٠٠ فدفعتها الغيرة عليه آخر الامر الى اللحاق به هناك ، ومعهـــا طفلتها ، رغم انها كانت تطوى أحشائها على جنين فى شهره الثامن !٠٠ ولم يمض شهر حتى وضعت ـ فى ١٢ يونية سنة ١٨٠٨ ـ طفلا ذكرا أطلقا عليه اسم « لويس » ٠ وحين أبلت صوفى من آثار الوضع قرر زوجها أن يأخذ أسرته الصغيرة الى بيت أمه فى « نوهان » ، حيث كان يأمل أن يلقوا ترحيبا خالصا ـ بعد أن فتر حقد مدام دوبان من أجل زيجة ابنها ـ لكن الرحلة كانت حافلة بالمصاعب ، فقد سارت بهم العربة وسط ميادين قتال رشقت بالجثث ٠٠ وأصيب الاطفال بالحمى ، وعانوا من نقص التغذية، وامتلأت ثيابهم بالقمل الذى علق بهم فى الحانات القذرة التى مروا بها !٠٠ لكن مدام دوبان استقبلتهم استقبالا كريما مضيافا ، وأخذت « أورور » الى غرفتهـــا الخاصة حيث تولت تنظيفها من القمل والحشرات ٠٠ وشفيت الصغيرة من مرضها فى مدة وجيزة ، أما الطفل الرضيع فقد مات ، فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٠٨ ٠٠

الفـــاجعة ٠٠!

ولم تمض أيام ، حتى خرج الاب على ظهر جواده الاصيـــل (ليوناردو) الذى كان قد جلبه معه من اسبانيا ٠٠ وفيما هو يهم بمغادرة ضاحية (لاشاتر) بعد هبوط الظلام ، فى طريق

عودته الى نوهان ، ألقاه الجواد على كومة من الاحجار ٠٠ فقتل لساعته !

أية مأساة !٠٠ وأى حظ عاثر فى أن يقضى القدر هكذا على امرأتين جد متنافرتى الاخلاق والطباع ، أن يتقاسما هما واحدا، مصيره الحتمى أن يقرب بينهما ويؤلف بين حياتيهما ؟!

وعكفت الحماة على دراسة شخصية زوجة ابنها ، بفضول وتدقيق ، محاولة أن تفهم السر الذى جعل موريس يتدله فى هـــواها الى ذلك الحد !٠٠ ولم يمض زمن حتى اهتدت مدام دوبان الى حل اللغز: فقد كانت صوفى فنانة الى أطراف أصابعها، تكتب خطابا بليغا وهى تخطىء فى الهجاء !٠٠ وتغنى أعذب الاغانى وهى تجهل كل شىء عن الموسيقى ٠٠ وترسم ، بغير أن تتلقى درسا فى أصول الرسم ! وكان ثمة شىء من السحر والخرافة فى سر اتقانها تفصيل الثياب ، وصنع القبعات ، أو اصلاح وتر مقطوع فى قيثارة ! لم يكن شىء تهاب أن تدلى فيه بدلوها ، وفى كل عمل مدت اليه يدها كان النجاح يحالفها !

الحماة ٠٠ وزوجة الابن !

وبرغم نفور كلا المرأتين من الاخرى ، لم يكن بد من أن تتعاونا على الحياة معا ٠ **وكلما كان ينشب بينهما خلاف ، كانت الصبية (أورور) تنحاز فيه الى أمها ، ضد جدتها ! وكأنها أدركت أن الاخيرة ـ وهى سيدة المنطقة ـ تعامل أمها باحتقار ، فأحست بالحاجة الى أن تلعب دور رجل ، لحمايتها ! واذ أحست بعمق اليأس الذى دهم الارملة الشابة بوفاة زوجها ، حاولت هى أن تعوض أمها عن مصابها بالاغراق فى حبها !**

وسرعان ما تعلمت القراءة ، فعـــاشت فى عوالم (أرض العجائب) التى صاغها خيال مؤلفو قصص الاطفال المشهورة ٠٠ وكان من زملاء طفولتها ـ عدا فتيات القرية وفتيانها ـ أخوها غير الشقيق « هيبوليت » ، الذى أنجبه أبوها من احدى خادمات

البيت فى شبابه الباكر ، قبل أن يلتحق بالجيش !٠٠ وكانت أمتع ساعات لهوها تلك التى تقضيها فى تأمل حياة الريف الهادئة السعيدة : فى متابعة الثيران البطيئة فى دوراتها الدائبة مع المحراث ٠٠ ورعاية الاغنام ٠٠ واطعام الدواجن ٠٠ والمشاركة فى أفراح القرويين ٠٠ والاصغاء الى القصص القديمة يرويها الغزالون المجتمعون حول النار ٠٠ الخ

ولكم أمض جدتها أن تراها تتعلم أساليب « القرويين » فى كل شىء — وكان هذا الاهتمام وحده دليلا على أنها غدت شغوفة بها ، وانها توقعت لها مستقبلا يتناسب مع ذكائها الملحوظ ، ومن ثم أرادت أن تربيها تربية ارستقراطية تعلمها آداب المشى ، والجلوس ، والانحناء ، والتقاط القفاز ، وتناول الشوكة أو الطبق ٠٠ الى آخر آداب السلوك التى ينبغى أن يقتدى بهـــا الاطفال منذ سن باكرة كيما تصبح طبيعة ثانية فيهم ٠٠

وبلغ من تدليل جدتها لها انها صارت تناديها باسم «موريس» ، وتشير اليها فى أحاديثها بكلمة « ابنى » ٠٠ وهكذا اشتركت الجدة والام فى غرس شعور الاسف فى نفسها لكونها لم تخلق ولدا ٠٠ فقد تاقت أورور الى أن تحمى أمها من عدوان الاقدار ٠٠ وتاقت مدام دوبان الى أن تبعث ابنها من قبره !!

وامتد نطاق الخلاف بين المرأتين الى محيط الدين ، فبينما كان للام ايمان البسطاء الشاعرى الحار ، كانت الجدة تمت الى نساء القرن الثامن عشر ، المتمسكات بجوهر تعاليم الدين دون قشوره ٠٠ وكم كانت الصبية تألم مثلا لسخرية جدتها — باسم العقل — من المعجزات التى كانت هى تؤمن بها ٠٠!

عاطفة الام ٠٠ ومصلحة الابنة !

وزاد من حدة الخلاف رفض الجدة أن تأوى تحت سقفها ابنة صوفى الاخرى — كارولين — التى أنجبتها من عشيق ســـابق لموريس ٠٠ وهكذا صار لا بد من افتراق المرأتين ! وكان أشق

ما يحير الام جهلها بما اذا كانت سعادة الصبية فى أن ترحل معها ، أو تبقى فى (نوهان) ؟٠٠ لكنها انتهت أخيرا - برغم توسلات البنت وضراعتها - الى أنه ليس من حقها أن تحرم فلذة كبدها من مستقبل باهر كالذى تهيئه لها نشأتها فى كنف جدتها ، ومن ايراد سخى قدره خمسة عشر ألف جنيه فى العام !!

وهكذا رحلت الام ، وهى تعزى نفسها بأنها تستطيع أن ترى ابنتها كل شتاء فى باريس ٠٠ بينما أحست الصبية من الفراق كأن أحشاءها تتمزق !٠٠ على أنها لم تلبث أن استمتعت فى (نوهان) بحرية كاملة ، وعلمتها جدتها كيف تقدر كنوز ذوقها الادبى ، ولقنتها أصول الموسيقي وفنونها ، كما جلبت لها من علمها اللاتينية والعلوم الطبيعية ٠٠ فقرأت أورور « الياذة » هوميروس ، وكتبت وصفا لحياة الريف نم عن موهبتها الادبية المستقبلة !

وفى الشتاء كانت الصبية تصحب جدتها الى باريس ، فتزور هناك مسكن أمها المتواضع ، الحافل بذكريات صباها الباكر ٠٠ لكن هذه الزيارات كان ينغصها منع جدتها لها من اللهو واللعب مع أختها غير الشقيقة « كارولين » ، الامر الذى كانت تعقبه مواقف عنيفة ، وثورات ، ودموع !

الماضى الملوث !

وذات يوم - وكانت مدام دوبان مريضة - استدعت حفيدتها الى مخدعها وجعلتها تركع بجوار فراشها ، ثم بدأت تروى لها قصة حياتها هى ، وحياة ابنها ، وأخيرا حياة زوجة ابنها - أم الصبية - فصورت مباذلها الماضية والحاضرة بألوان صارخة ، بغير أن تأخذها بها شفقة أو رحمة !٠٠ **بينما لو أنصفت لذكرت لها شيئا من الظروف التى جعلتها تسقط الى ذلك الدرك : كيف دهمها اليتم والفقر فبدأت تصارع الخطوب وهى بعد فى الرابعة عشرة ٠٠ وكيف أحاط بها العابثون المفسدون من شبان الاغنياء ،**

الذين هم دائما على استعداد لمراودة الجائعة وافساد البريئة !٠٠ بل لو أنصفت الجدة لذكرت للصبية شيئا عن قسوة المجتمع وأنانيته ، ولذكرتها قبل كل شيء بأن أمها صوفى قد أخلصت الحب لموريس ثمانية أعوام كاملة ٠٠ لكن العجوز التعسة لم تصارح حفيدتها بشيء من ذلك كله ، وانما دفعتها الكراهية والاحساس بالواجب ـ فيما خيل لها ـ الى أن تلقى بالكلمات من فمها كالحمم ، فتصف صوفى بأنها « امرأة ضائعة » ، وتصف أورور نفسها بأنها « طفلة عمياء تتأرجح على شفا الهاوية ! »

وأنتجت هذه المصارحة في نفسية الصبية أزمة عنيفة ٠٠ فأهملت دروسها ، ورفعت راية العصيان والتمرد!٠٠ فاستدعتها جدتها ذات يوم لتقول لها : « انك يا ابنتى قد فقدت اتزانك٠٠ لذلك قررت أن أدخلك ديرا ، وسوف آخذك الى باريس كى أنفذ قرارى هذا ٠٠ »

وفرحت أورور بالنبأ ، ففى باريس قد يتاح لها أن ترى أمها ، وفى الدير سوف ترى وجها آخر من أوجه الحياة غير الذى ألفته ٠٠

وهكذا دخلت أورور الدير دون أن ينتابها أدنى شعور بالندم أو النفور !

شيطانة بين الراهبات !

◆ **كان** دير « راهبات القديس أوغسطين الانجليزيات » ديرا عتيقا أسسه بعضهم فى باريس فى زمن اضطهاد «كرومويل» للكاثوليك ٠٠ وقبل أن تدخله أورور أخذت لترى أمها ، فلم تكد تلمحها حتى حيتها بكل حرارة ابنة تريد أن ترى فى أمها جميع الفضائل التي ينكرها عليها المجتمع الظالم !

وكم كانت دهشة الفتاة حين تقبلت أمها «مظاهرتها» العاطفية بفتور ملحوظ ٠٠ ولمحت الابنة لاول وهلة أن حياة الحرية التى

تحياها أمها قد ازدحمت بمشاغل جديدة ، ووجوه غريبة !٠٠ فلما فاتحتها أورور فى شأن ادخالها الدير أقرت الام الفكرة من فورها ، بكلمات جرحت كبرياءها جرحا عميقا !٠٠ وازاء هذه الصدمة ، أحست الفتاة – أكثر من ذى قبل – بأن الدير بالنسبة لها أشبه بواحة وارفة تتخلل صحراء حياتها المحرقة !

وكانت راهبات الدير جميعا انجليزيات ، فلم تلبث أورور أن ألفت عاداتهن – التى احتفظت بها بعد ذلك طيلة حياتها – فصارت تتكلم الانجليزية ، وتشرب الشاى ، بل وتفكر أحيانا بالانجليزية !٠٠ وكانت بين زميلاتها فى الدير فتيات من أعرق وأنبل عائلات فرنسا – فقد كانت للدير مكانة فى باريس لا تقل عن مكانة أديرة « الساكريه كور » الفرنسية العريقة ٠ وكانت راهبات الدير ونزيلاته يرتدين جميعا زيا واحدا قرمزى اللون٠ أما بناء الدير فكان أقرب الى أن يكون قرية كبيرة ، وقد كسته الكروم والياسمين فأسبغت عليه منظرا جميلا وأريجا فواحا ٠٠

حذار من الجنس الآخر !

ولم يكن يسمح بدخول الدير لغير قسيسين فقط من الرجال ٠٠ وكانت قائمة « التعهدات » التى تحفظها فتيات الدير عن ظهر قلب تتضمن هذه العبارات : « **فى كل يوم سأستيقظ فى ساعة محددة ، مكتفية فى النوم بالساعات اللازمة لحفظ صحتى، على أن لا أبقى فى الفراش بدافع الكسل ٠ وسوف أكون صارمة فى تجنب الاحلام العقيمة والافكار غير المجدية ٠٠ ولن أنغمس فى أية تصورات خليقة بأن ترسل الحمرة الى وجنتى فيما لو علم أحد بما يدور فى طوايا قلبى ٠ وسوف أحرص بكل انتباه على أن أتجنب الانفراد بأشخاص من الجنس الآخر ، وأن لا أسمح لهم بأقل قدر من رفع الكلفة ، أيا كانت أعمارهم أو ظروفهم ٠** واذا تقدم لى انسان بطلب زواج ، مهما كان شريفا ، أتعهد بأن أخطر به أهلى فورا ، وسيكون رائدى دائما أن أكون عذبة الطباع،

وفية لمن يخدموننى ، على أن لا أسمح لهم برفع الكلفة معى ، ولا أبوح لهم قط بأحزانى أو أفراحى ٠٠ »

على أن كل التحذيرات ضد أفراد « الجنس الآخر » كانت بالنسبة لاورور لا لزوم لها ٠٠ فهى لم تكن تفكر قط فى الرجال ! وكانت فتيات الدير ينقسمن فى نظرها الى ثلاث فئات: «**العاقلات**»، وهن التقيات ذوات الطباع الحسنة٠ و«**الشيطانات**»، وهن المتمردات المرحات ٠٠ وأخيرا « **الغبيات** » اللواتى يتوسطن بين الفئتين السالفتين

وقد كانت أورور خلال عامها الاول فى الدير ، من فئة « الشيطانات » ، شغوفة بالدعابات القاسية وأعمال «الشقاوة» العاتية ٠٠ وفى كل اسبوع كانت تمضى الى القس لتفرغ فى أذنيه جعبتها من الاعترافات! ٠٠ وعلى غلاف أحد كتبها الانجليزية وجدت هذه العبارات : « **يسقط الانجليز !٠٠ الموت للانجليز الكلاب ! تحيا فرنسا ! اننى لا أحب ولنجتون ٠٠** »

على أن الفتاة برغم شقاوتها كانت محبة لزميلاتها ، شغوفة بالفنون شغفا متأصلا لا زيف فيه ٠٠ كانت موهوبة فى الرسم ، تجيد العزف على القيثارة ، وتهوى الكتابة نثرا وشعرا ٠٠

تعشق راهبة !

وكان من عادة الراهبات أن تتخذ الواحدة منهن لنفسها تلميذة تخصها بحنانها الاموى ٠٠ وقد حظيت أورور فى عامها الثانى بهذا الحنان من جانب أجمل راهبات الدير وأذكاهن٠ كانت «الام اليسيا» رائعة الجمال، عذبة الصوت، جذابة، ذكية، تنعكس طيبة قلبها فى عينيها الواسعتين الزرقاوين اللتين يحيط بهما اطار من الاهداب الفاحمة ـ وقد أطلقت عليهما أورور « مرايا النقاء » ! ـ وبمرور الايام نما اعجاب الفتاة بالراهبة العذبة ، حتى حزمت أورور شجاعتها ذات يوم وفاتحت الام أليسيا برغبتها فى أن تتخذها تلميذتها المفضلة !٠٠ فأجابتها الراهبة

فى دهشة : « أنت ؟ أشقى فتيات الدير ؟ » .. لكن أورور ظلت تلح وتلحف فى الرجاء ، طالبة منحها فرصة أخيرة للعدول عن مسلكها والتزام جادة العقل والاتزان .. حتى رضخت الراهبة أخيرا لعاطفتها ، **ومنذ ذلك اليوم أطلقت الفتاة العنان لحبها الموجع للام انيسيا ، وكأنما كانت تنشد عند هذه الراهبة العذبة ما افتقدته فى أمها ، وحتى فى جدتها ، من صفات الكمال الخلقى** .. فوجدت فى تعلقها بها تنفيسا عن حنينها الفطرى الى شخص تخصه بعاطفتها وتكرس له قلبها !

◆ **ومضت** الشهور ، ودخلت أورور فى عامها الخامس عشر .. وشيئا فشيئا أخذت انفعالات الصبا وحماقاته تخلى مكانها من كيانها لذلك الشعور الغامض بالترقب ، الذى يداهم الفتيات فى هذه السن ! وذات مساء ، وقفت ترقب راهبات الدير وهن متجهات الى قاعة الكنيسة فخطر لها أن تتبعهن الى الداخل كى تراقب مسلكهن عن كثب وهن يتعبدن . وأثر فى نفسها منظرهن وهن يسكبن قلوبهن بين يدى الله ، فخرجت يومئذ وقد تحولت الى مخلوقة أخرى ..

نزعة الى التصوف

وكانت تلك بداية مرحلة جديدة فى حياتها ، غلبتها فيها نزعة التصوف ، حتى لقد فكرت جديا فى أن تنخرط نهائيا فى سلك الرهبنة ، لولا أن أدرك القس الذى صارحته برغبتهاهذه، أن ميلها ليس متأصلا فى نفسها ، وانه لا يخرج عن كونه تنفيسا عن عواطف المراهقة المكبوتة ـ التى تتجه فى هذه السن اما الى الدنيا واما الى الدين ـ فكان أن وجه اليها هذه النصائح الحكيمة:

« انك تستسلمين لحالة من الكآبة والانطواء يحسن أن تتداركيها . ان زميلاتك لم يعدن يعرفنك من فرط التغير الذى طرأ عليك ، فحذار !.. ان استمرارك على هذه الحال كفيل بأن يزرع فى نفوس زميلاتك خوفا وكراهية للدين .. فعليك أن تستأنفي اللهو البرىء الذي يناسب سنك .. »

الحالمة تهبط الى الارض !

وأطاعته ٠٠ فهدأت أفكارها شيئا فشيئا ، بحيث لم تمض ستة أشهر حتى هبطت مرة ثانية الى « الارض » !٠٠ وبدأت تشغل نفسها بتنظيم حفلات تمثيل مدرسية قامت هى ببعض أدوارها ٠ ثم أخرجت للمسرح رواية كانت قد قرأتها أثنـــاء مقامها مع جدتها فى (نوهان) ٠٠ ولم تلبث أن اكتسبت محبة الراهبات والتلميذات جميعا ، وصارت قلب الدير النابض ٠٠

وانها لمنهمكة فى هذا النشاط المدرسى ٠٠ واذا برسالة تصل من جدتها ، تستدعيها فيها الى (نوهان) !٠٠ وهناك ابتدرتها قائلة : « يا ابنتى ، من الضرورى أن أعثر لك على زوج بأقرب فرصة ، فان أجلى قد دنا ٠٠ » ٠ كانت العجوز تعتقد أن يوم منيتها قد اقترب ، وكانت تتحدث عنه بهدوء « فلسفى » ٠٠ ثم أضافت انها تموت يائسة حزينة ان تركت حفيدتها تحت رحمة أم غير جديرة برعايتها ٠٠!

وهكذا أجبرت أورور على ترك الدير الذى كانت قد أحبته واعتبرته ٠٠ جنتها ! تركته ولكنها فى قرارة نفسها كانت تزمع العودة اليه فى أقرب فرصة ، بغير أن تعرض حياة جدتهـــا للخطر ٠٠ ذلك انها كانت مدينة للدير بالكثير من التغيرات السعيدة ، فى كيانها ونفسيتها ٠ فان جلال حركات الراهبات ، ونبل مسلكهن ، قد أسبغا عليها طابعا جذابا لازمها طيلة حياتها، وأضفى مسحة من الوقار على أجرأ حماقاتها ونزواتها !٠٠ والى جانب هذا فانها اكتسبت مسحة من الجد، وعمقا فى الشخصية، بحيث يمكن القول انه اذا كانت جدتها قد أكسبتها جلال تقاليد القرن الثامن عشر ، و (نوهان) علمتها التغنى بجمال الطبيعة، فان الدير قد علمها شيئا أهم من ذلك كله : علمها « انكار الذات»!

الفزع من الزواج !

◆ **وعلى** أثر مغادرتها للدير قضت أورور أياما فى باريس، بصحبة جدتها ٠٠ لكنها أيام حفلت برعب شديد من أن تفرض

عليها زيجة اجبـــارية ! **ترى هل يقضي عليها بمصير بطلات مسرحيات موليير ؟ هل تسلم الى شيخ أشيب اللحية يخرجها بقوله : « يا ابنتى ، اما أن تقولى نعم ، أو تصيبينى بضربة قاضية ! » ؟**

واستقلت مع جدتها العربة الى (نوهان) . كان ربيع سنة ١٨٢٠ مورقا فوق الاغصان ، والبلابل تصدح فوق الافنان ، وعمال الحرث يرددون فى الحقول أغانيهم الشائعة . وحين لاح للفتاة بيت جدتها حركت الذكريات نفسها الراكدة ، لكنها أحست مع ذلك بحنين الى أجراس الدير ، والى الام أليسيا !

على أنها لم تلبث أن مارست فى موطنها الجديد حريتها الكاملة .. فان جدتها منذ اعتلت صحتها نفضت يدها من أكثر مشاغل البيت . كانت ما تزال تظهر على مائدة الطعام بثوبها الوقور ، وعلى خديها مسحة خفيفة من طلاء ، وفى أذنيها قرط من الماس ، لكنها كانت تنحدر نحو القبر بخطي سريعة .. وأحيانا كانت الجدة والحفيدة تشتبكان فى مناقشة فلسفية هادئة ، تظهر فيها نزعة كل منهما واضحة . كانت الاولى من أتباع فولتير ، أما الاخرى فمن تلميذات « شاتوبريان » المخلصات ..

وجاء أخوها غير الشقيق « هيبوليت » ـ وقد صار جاويشا فى فرقة (الهوسار) ـ فدربها على ركوب الخيل ، بحيث لم تمض أيام حتى صارت وفرسها المحبوبة (كوليت) صديقان لا يفترقان ، يقضيان فترة من كل يوم فى اجتياز العوائق والقفز فوق سياج الحديقة ..

اعترافات جدة

وصارت تأخذ دروسا فى الموسيقى ، وفى اللغة الايطالية ، على صديقة لجدتها تدعى مدام دى بونكاريه ، وابنتها بولين .. وأحيانا كانت الفتاتان تشتركان فى تمثيل مشهد من رواية تمثيلية ، أو تدخل أورور مع جدتها في « مناظرة » اجتماعية .

وكانت الجدة قد عاشت حياتها عفيفة ، متزمتة ، برغم انحلال الاخلاق فى عصرها ، وبرغم انها قضت أكثر أعوام شبابها بغير زواج !٠٠ وكان رأيها فى هذا الصدد : « **لقد طالما حثنى نساء من صديقاتى كى أتخذ لى عشيقا ٠٠ فكنت أجيبهن بأن جحود الرجال ، وأنانيتهم ، ووحشيتهم ، تشعرنى بنفور من أن تكون لى بهم أية صلة !٠٠ ولست أزعم اننى خلقت من طينة مغايرة لطينة غيرى من البشر ، فلقد كنت فى شبابى امرأة تحس كل ما يحسه سائر النساء ، واذا كنت لم أسلك مسلكهن فما ذلك الا لانى لم أصادف رجلا أستطيع أن أحبه بعاطفة فيها من الحرارة ما يغريني بأن ألقى « بساطا من الشعر » على حقائق الحياة الحيوانية !** »

اقرأ الفصل التالى من الكتاب فى « كتابى » القادم

محتويات الكتاب

مطبعة شركة الاعلانات الشرقية

ترقب .. فى أول اكتوبر
كتابى « الممتاز » القادم



رباعيات عمر الخيام

وكتب أخرى

كتابى

التاسع عشر

« ولم تكن الفتاة الا أنت !

« أنت التى كنت - طوال الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة - أراك فى مصر دائما مع ابن عمى فؤاد ، وأعلم مدى علاقته بك !

« وهكذا بدت الخديعة سافرة أمام عينى .. لقد كنت كالقطة الشريرة ، تعملين " بروحين ".. واعتنقت شريعة سمحاء : الشرك فى الحب .. فاستبحت لنفسك - فى وقت معا - عواطف رجلين ، خصصت البعيد منهما بحبك الطاهر ، وخصصت القريب بحبك الفاجر .. وافلحت فى أن تضرمى جذوة العاطفة فى كيانهما بوقود واحد : رضاب شفتيك ! .. أبيتِ على الأول فألهبه الحرمان ، وأبحتِه للثانى فألهبه الإدمان !

« وهكذا بقى الاثنان فى الأسر ! »

(من قصة " خبز الهوان " ، احدى قصص هذا العدد)